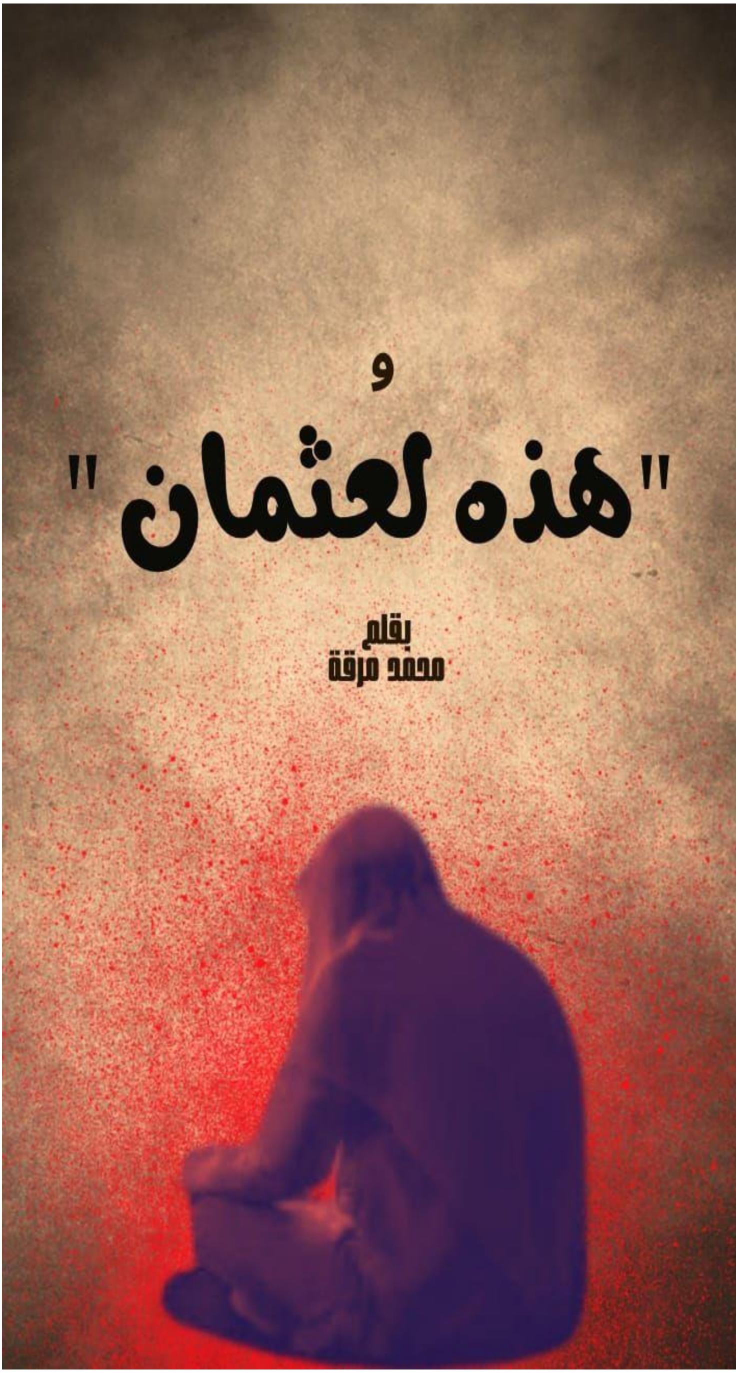
و
"هذه لعثمان"
بقلم
محمد مرقة

و"هذه لعثمان"

محمد مرقة

الإهداء:

إلى سيدي عثمان

في مكة وقريبًا من الكعبة، في المكان الذي كانت قريش تجتمع فيه لتباحث عظيم أمورها، دارِ الندوة، كان عثمان ذو الرابعة عشر من عمره واقفًا بالباب بثيابه الفاخرة، ومنظره الحسن، يستمع إلى حديث زعماء قريش، وتذاكرهم ما فعل الله بأبرهة الأشرم، لمّا قصد مكة بجيشه الجرار ومعه الفيلة يريد هدم الكعبة، وأنهم أوسط العرب نسبًا، وأن العرب جميعًا لا تجرؤ على قصدهم بشر، فهم عمّار البيت الحرام وأصحاب رفادته وسقايته، وتباحثهم آخر ما آلت إليه أمور الحرب التي بينهم وبين قبائل قيس عيلان، تلك الحرب التي عُرفت فيما تلا بحرب الفِجار.

-قد كثر القتل فينا البارحة.

-لا بأس، فالأيام دول، وإن كانت الغلبة لهم البارحة، فقد كانت الغلبة لنا فيما مضى من أيام.

-والله ما فُجعت بشيء أكثر من مقتل أبي سفيان بن أمية.

-أجل، لكننا قتلنا من أشرافهم، ولصقت بهم سُبّة الدهر أبدًا يوم مدار قيس.

-الصبر الصبر، وما أسرع انقضاء الأيام، وموعدنا معهم العام القابل.

بعد أن انفض المجلس، وأدلى كل رئيس من كبراء مكة برأيه، انطلق عثمان متجهًا إلى بيته، وفي طريقه، رأى أبا طالب بن عبد المطلب راجعًا من دار الندوة، يحيطه بنوه وأبناء إخوته، يتوسطهم محمد.

محمد شاب في التاسعة عشر من عمره، أزهر الوجه، جميل المحيا، طيب الرائحة، عليه الوقار باد إذا تكلم أوصمت، لا يراه أحد من قريش ولا من غيرها إلا أحبه، وكانوا يدعونه الأمين. رآه إلى جانب عمه أبي طالب ، الذي

علمت قريش جميعًا، أنه أحب خلق الله إليه، وأنه لا يصبر على فراقه ساعة، كما كان جده عبد المطلب من قبل كذلك، لا يصبر على فراقه.

في الحقيقة، كان عثمان يحب محمدًا حبًا زائدًا عن حب الباقين، وهو يدري سبب هذا الحب، وربما وهو لا يدري.

****

بعد مضي عام على آخر اقتتال كان بين قريش وكنانة ومن حالفهم من جهة، وقيس عيلان ومن حالفهم من جهة أخرى، اصطف الفريقان للقتال كما كانوا تواعدوا قبل سنة، وكان عتبة بن ربيعة يتيمًا في حجر عمّه حرب بن أمية سيد قريش وكنانة، فأشفق حربٌ عليه ولم يخرجه معهم للقتال، إلّا أن عتبة خرج بغير علم عمّه، فما شعر الفريقان إلّا وعتبة على بعير له بين الجيشين ينادي:

-يا معشر مضر!، على أي شيء يفني بعضكم بعضًا!؟

-وما تدعوا إليه؟

-الصلح، انصرفوا فيعود هذا الأمر إلى أحسنه وأجمله، فإنكم في شهر حرام، وقد كسدت تجارتكم وتجارتنا، وانقطعت المودة وخاف القريب والبعيد.

-لا ننصرف أبدًا ونحن موتورون ولو قتلنا جميعًا.

-والقوم قد وتروا وقتل منهم نحو الذي قتل منكم.

-لكن، قتلانا أكثر عددًا.

-أحصوا قتلاكم ونحصي قتلانا، فمن كان قتلاه أقل، دفع الدية.

-ومن لنا بما تقول؟

-أنا.

-ومن أنت؟

-أنا عتبة بن ربيعة بن عبد شمس.

فقال سيد قيس عيلان:

-لا يرد هذا إلا من يأخذ بشر منه، نحن نفعل.

فأحصى كل فريق قتلاهم، فوجدوا أن قتلى قيس عيلان أكثر، فأعطتهم قريش وكنانة ديتهم، ووضعت الحرب أوزارها، وتعاهد الفريقان وتعاقدوا.

****

قد مر على تلك الحرب عشرون سنة، وما عاد أحد يخوض في حديثها، فهكذا الحروب، تأكل الناس أكلًا، ثم إذا انتهت بنصر، أو هزيمة أو صلح، عاد الناس إلى حياتهم وكأن شيئًا لم يكن. والجميع الآن مشغول بالخراب الذي لحق بالكعبة جرّاء السيل الذي دهم مكة وأغرق دورها.

-لقد صُدع جدار البيت، وإذا بقيت الكعبة على هذا الحال تهاوت وسقطت، وقد والله تعلمون أنها بيت أبيكم إبراهيم، وبها شرفت بلدتكم هذه، وإن فقدتموها هان أمركم عند العرب وغضبوا عليكم.

-وماذا نصنع يا أبا الوليد ولا أخشاب عندنا نسقف بها سقفها؟

-جاءتني أنباء عن سفينة رماها البحر على ساحل جدة، وإني خارج إليها علّي أجد حاجتنا فيما تكسّر من خشبها.

وما هي إلا أيام حتى عاد الوليد بن المغيرة سيد بني مخزوم، ومعه نفر من قريش من الساحل، وقد جلبوا معم الأخشاب على ظهور الإبل، بعد أن

ابتاعوها من أصحابها. ثم أمرت قريش نجارًا يدعى باقوم، بسقف الكعبة وترميمها.

وأثناء بنائهم لها ولمّا وصلوا موضع الحجر الأسود، اختلفوا فيمن يضع الحجر موضعه، وأراد كل بطن من بطون قريش رفعه لينال الشرف، ويذهب بالمديح، ويفضل على باقي قريش. فعلت أصواتهم واحتدت عباراتهم.

-نحن بنو مخزوم أحق من يلي هذا الأمر.

-كلا والله، لا أحد أحق بهذا منا نحن بني أمية.

-ما لنا نراكم تتشاجرون بينكم، وكأن قريشًا ليس فيها غيركم، بل نحن بنو جمح من سيلي هذا الأمر.

وعلت الأصوات أكثر، واحمرت العيون، وسلَّ الرجال السيوف وتواعدوا للقتال، فالجميع لن يتنازل عن هذا الشرف، وكل بطن من قريش يعلمون أنهم إذا تركوا غيرهم يلي هذا الأمر، ضاعت عليهم الصدارة وذهبت لغيرهم.

فتشاور العقلاء من القوم، وحاولوا تدراك الأمر قبل أن يتفاقم، فاتفقوا على أن يقضي بينهم أول رجل يدخل باب الحرم، وأن يكون حكمه نافذًا ولا يعترض عليه معترض. فما هو إلا قليل حتى دخل محمد بن عبد الله الحرم، رزين المشية عليه الوقار، فعلت وجوه القوم البهجة واستبشروا وقالوا:

-من خير من الصادق الأمين يحكم بيننا؟

فتحلّقوا حوله، وأخبروه خبرهم وما اتفقوا عليه، فخلع رداءه ووضعه على الأرض وبسطه، ثم أخذ الحجر الأسود فوضعه عليه، ثم أمرهم أن يأخذ كل بطن من قريش بطرف من الثوب، فرفعوه جميعًا ثم وضعه بيده مكانه، ورجع الجميع مسرورين بحكمه، معظّمين لحكمته، راضين إذا تساوى الجميع في الشرف.

(فصل)

ما أسرع مرور الأيام، فبالأمس كانت كل قريش كبارها وصغارها، ساداتها وعبيدها يشغلهم حديث السيل وترميم الكعبة، واليوم وبعد خمس سنوات، لا يشغلهم إلا ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.

لقد اعتاد أهل مكة منظر الأصنام حول الكعبة، وورثوا عن آبائهم تقديسها وعبادتها من دون الله، وكانت العرب جميعًا تدين بما تدين به قريش من تعظيم الأصنام، واتخذت كل قبيلة صنمًا لها تعبده مع الله، وتدعوه، وترجوه، وترى أنه يقرّبها إلى الله زلفى، فلهذيل سواع، ولقريش هُبل، ولكنانة وقريش العزّى، ولثقيف في الطائف اللات، وللأوس والخزرج مناة، ولطيء فِلس، ولحمير رئام، إلى أصنام كثيرة لقبائل شتّى.

ولمكانة قريش من البيت الحرام، فقد كانت العرب جميعأ تبعًا لهم، وكانوا يأتون في كل موسم حج إلى مكة مقرّبين لتلك الأصنام القرابين، ينذرون عندها، ويذبحون لها، ويستشفونها ويدعونها. ولذا وقف كبار رجالات قريش بالمرصاد لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم الحاضة على عبادة الله وحده لا شريك؛ الوليد بن المغيرة، و الحكم بن هشام، وعقبة بن أبي معيط، وأمية بن خلف، بل و حتى عتبة بن ربيعة، سيد بني عبد شمس الذي كان يُلقب بالعدل، لأنه كان يعدل قريشًا كلها بالحلم والرأي كذّب بدعوته صلى الله عليه وسلم، لأنها تسلب هؤلاء وغيرهم من سادة مكة مكانتهم، وتساويهم مع الناس، وتحرمهم أكل أموال الناس بالباطل بالربا وغيره، وتحرّم عليهم ما حَرُمَ من ملاذ كانوا يتعاطونها ، إضافة إلى حسد بعضهم بني هاشم، إذ كيف يخرج منهم نبيٌ يشرفون به على باقي قبائل قريش.

كانوا في قرارة أنفسم يعلمون أنه لا إله إلا الله، ويعلمون أن محمدًا صلى الله عليه وسلم صادق أمين، وقد سمعوا القرآن منه، وعلموا أنه لا يمكن بحال، أن يكون من كلام البشر، لكنّهم كذّبوا وكفروا، وعليه فقد نال كلّ من آمن بالله تعالى ربًا واحدًا لا شريك له أذىً شديد، وكان من جُملة من ناله الأذى عثمان.

****

-يا عثمان! كيف أنا لك؟ ألستُ خير صاحب؟

-بلى يا أبا بكر، نعم الصديق والصاحب.

-ويحك يا عثمان، والله إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل. هذه الأوثان التي يعبدها قومك، أليست حجارة صمّاء لا تسمع، ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع؟

-بلى والله، إنها لكذلك.

-هذا محمد بن عبد الله، قد بعثه الله برسالته إلى جميع خلقه، فهل لك أن تأتيه وتسمع منه؟

وهذه كانت بداية هداية الله عثمان للإسلام، إذ نزل كلام أبي بكر على قلب عثمان كالغيث على الأرض المجدبة، فلم يتلكأ، وذهب مع أبي بكر من فوره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

-يا عثمان!، أجب الله إلى جنته، فإني رسول الله إليك وإلى جميع خلقه.

-أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

فانفرجت أسارير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- يا نبي الله، إني أريد أن أقص عليك خبرًا عجيبًا؛ وأنا قافل من تجارتي الأخيرة إلى الشام، أتاني وأنا بين النائم واليقظان آت فناداني: أيها النيام هبّوا، فإن أحمد خرج بمكة. فانتبهتُ فزعًا، فإذا الذين معي، سمعوا مثل الذي سمعت.

فأضاء وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق ما هو مضيء، ثم ما لبث أن جاء أبو بكر بعدها بالزبير بن العوام ابن عمة النبي صلى الله عليه وسلم، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص مسلمين، كما جاء

بعثمان من قبل، وكان قد آمن من قبلُ ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب ومولاه زيد بن حارثة.

وكان عثمان ممن أُوذي وعُذّب عذابًا شديدًا، فقد غضب عمّه الحكم بن أبي العاص غضبًا شديدًا لمّا علم بإسلامه، وأخذ على نفسه أن يرده عن دينه، فساقه إلى حجرة مظلمة، وأوثقه بسلاسل الحديد، وقال والغيظ يكاد يقتله:

-اترغب عن دين آبائك إلى دين محدث!؟ والله لا أحلُّ وثاقك حتى تدعه، وترجع إلى دين قومك.

-والله لا أدعه أبدًا ولا أفارقه، فاصنع ما بدا لك.

-فلننظر إلى متى ستصبر على الجوع والعطش.

-يا عماه، لست تاركًا دين الحق بعد إذ هداني الله له.

وطال مكث عثمان في محبسه ذاك، وكاد يموت جوعًا وعطشًا، وعمّه يظن أنه لا يصبر، ثم يعيد ابنَ أخيه إلى دين آبائه، وتتحدث قريش أنه نجح فيما عجز عنه الآخرون مع بنيهم وعبيدهم ممن أسلم. فرجع بعد يومين، وهو لا يكاد يشك أن عثمان سيرجوه ليفك وثاقه، ويطلقه، فلما دخل عليه، وجده في أرثى حالة، وقد أجهده الجوع والعطش، وشحب لونه وغارت عيناه، فقال شامتًا:

-ها، أترجع عن دينك أم ماذا؟

-يا عمّاه، أتريد مني أن أعبد من دون الله أصنامًا لا تضر ولا تنفع، فأُحرم الجنة وأُخلّد النار في الآخرة!؟

-الآخرة الآخرة!، إننا إذا متنا صرنا ترابًا، لا بعث ولا قيامة.

-بلى يا عم، بل نُبعث ونحاسب، فإما جنة وإما نار.

-إذن لن ترجع.

-كلا.

-والله لترينَّ ما أصنع.

فصرعه على وجهه، ولفّه بحصير من سعف النخل، ثم حمله وعلقه، وصار يشعل تحته النار يخنقه بدخانها، فما ازداد عثمان إلا عزيمة، وعمّه يضرب يديه كفًا بكف يأسًا منه، حتى أدرك أن عثمان لن يرجع عن دينه ولو زهقت نفسه، فأطلقه.

وإن كان عثمان استراح من عذاب عمّه له، إلّا أن أذى قريش بالقول والسخرية لم يتوقف. ولم يتوقف كذلك، عذاب قريش لكثير من المستضعفين ممن آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم، فأبو بكر وطلحة بن عبيد الله يُعذبان على يد نوفل بن خويلد أشد العذاب، حتى أنه شد وثاقهما في حبل واحد، وسحبهما في طرقات مكة، فجعل الصبيان والسفهاء يسخرون منهما، وكذلك الزبير بن العوام حبسه عمّه في حجرة مظلمة وأشعل تحته النار.

وبلال بن رباح عبد أمية بن خلف، يخرجه سيده في الحر والقيظ، ويلقيه على رمل مكة المستعر، ويضع فوقه صخرة عظيمة، والحكم بن هشام الذي سمّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا جهل، يعذّب آل ياسر عذابًا شديدًا، عمارًا، وياسرًا وسمية، حتى أنه آخر الأمر قتل سمية وزوجها عمارًا، ولم يترك ابنهما حتى نطق بما يحب من عيب دين النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أن الإيمان لم يغادر قلب عمار طرفة عين.

****

ونال رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما ناله من الأباعد والأقارب أيضًا، فهذا عمّه أبو لهب لم يكتف بتتبعه في مواسم الحج -التي كان يدعو رسول الله فيها الناس إلى الله- ينفّر الناس عنه وهو يصيح:

-لا تصدّقوه، أنا أعلم الناس به، أنا عمّه.

فقد أمر ابنيه عتبة وعتيبة، بتطليق بنات النبي صلى الله عليه وسلم؛ رقية وأم كلثوم، وذلك قبل أن يدخلا بهما، كسبيل لجلب الحزن على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفور علم عثمان بما كان من أبي لهب وابنيه، ذهب من فوره إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم يخطب ابنته رقيّة، فسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجه خديجة بنت خويلد، بأن أبدلهما الله تعالى لبنتهما رجلًا كريمًا مسلمًا، وقابل النبي صلى الله عليه وسلم طلبه بالقبول مع الحبور، وما هي إلا أيام حتى هيّأت خديجة ابنتها، وزُفّت رقية إلى عثمان، فقال الناس:

-أحسن زوجين رآهما الناس، رقية وزوجها عثمان.

وكانت رقية فوق ما يحب عثمان، نعم، كان يعلم قبل زاوجه بها أنها من خير نساء قريش، لكنها كانت خيرًا مما يظن، فأحبّها وأحبته حبًا عظيمًا، وشاطرته ما كان يلاقي، وخففت عنه بعض الأذى التي كان يلقاه من كفار قريش، ذلك الأذى الذي زاد عن حده، إذ أن صلابة أصحاب الحق تزيد أصحاب الطغيان تماديًا. فهذا مصعب بن عمير لما علمت أمه من قبل بإسلامه كادت تجن.

-أبعد كل هذا النعيم والمنزلة التي أنت فيها تتبع هؤلاء!؟

-يا أماه، متاع قليل والآخرة هي دار القرار.

-والله لا أتركك حتى ترجع عن دينك هذا وتعود إلى دين آبائك.

-قد علمتِ يا أمّاه أني من أبر رجال قريش بأمهاتهم، وليس لك مني إلا أن أصاحبك بالمعروف، وأما دنيي فلا أرجع عنه، ولو خرجت روحي.

-سأرى كيف ستصبر على شظف العيش، وقد علمت قريش أنك من أنعم الناس عيشًا.

فأخرجته من بيته، ومنعت عنه ماله، فصار بعدما كان يلبس الفاخر من الثياب، ويأكل أطايب الطعام، مصفرَّ اللون شاحب الوجه، نحيل الجسد، وكفاه اللينتان قد صارتا من أخشن ما يكون.

وهذا صهيب بن سنان، يُعذّب حتى يفقد وعيه ولا يدري ما يقول من فرط الألم، وكذلك عامر بن فهيرة كانوا يصنعون نفس الشيء معه، وأبو فكيهة كان سادته يخرجونه في الحر الشديد وفي رجليه قيود الحديد، فيُجرّد من ثيابه، ويُبطح على ظهره ثم يضعون عليه صخرة كبيرة، ويُخنق خنقًا شديدًا، حتى أنهم في أحد أيام تعذيبهم له، غُشي عليه، فظنوه قد مات، فتركوه، فمرَّ به أبو بكر فوجد به رمقًا، فسقاه ماءً وأطعمه، ثم اشتراه وأعتقه، وأما خباب بن الأرت فكانت سيدته تعذّبه بالنار، إذ كانت تأتي بالحديدة المُحماة، فتجعلها على ظهره ورأسه ليكفر، فما يزيده ذلك إلا صلابة في دينه، وحدث أن رجالًا من قريش لووا عنقه وشدّوه من شعره، وألقوه في النار، ثم سحبوه عليها فما أطفأها إلا ظهره.

كل هذا دفع النبي صلى الله عليه وسلم لنصح أصحابه بالهجرة إلى الحبشة إشفاقًا منه عليهم إذ قال:

-لو خرجتم إلى الحبشة، فإن بها ملكًا صالحًا لا يُظلم عنده أحد.

****

على إثر ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم اجتمع عثمان والزبير ومصعب بن عمير وجماعة من الصحابة.

-قد علمتم ما قال لنا النبي صلى الله عليه وسلم.

-لكن ما السبيل إلى الخروج من مكة دون علم أهلها بنا؟

-لا عليكم، إني خارج بأهلي الليلة قبلكم، أتحسس لكم الأخبار، وأرقب لكم الطريق، ثم أرسل لكم فتلحقون بي إلى موضع نتفق عليه، ثم نهاجر منه معًا.

وخرج عثمان وزوجه رقية خفيةً من مكة ليلًا، وظلّا يسيران طيلة الليل حتى نال منهما التعب، فأراحا، ثم أكملا المسير إلى الموضع المتفق عليه، وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم لأيام قلقًا يتحسس خبرهما، فكان يخرج إلى ظاهر مكة علّه يجد خبرًا عنهما، حتى جاءته امرأةٌ فأخبرته أنهما بأمان، فقال:

-إن عثمان لأوّل من هاجر بأهله بعد لوط.

ثم لحق الباقون بعثمان وأمّروه عليهم، وتوجهوا قِبل الساحل مسرعين قبل أن ينذر بهم أهل مكة، وفور وصولهم وجدوا مركبين على وشك الإبحار، فركبموهما سريعًا، وكان صناديد قريش قد علموا خبر المهاجرين فأرسلوا رجالًا خلفهم، إلّا أن الله نجى المؤمنين ووصل الذين كانوا يطاردونهم متأخرين، وأبحر المركبان يمخران الموج بالمهاجرين إلى أرض لم يطؤوها من قبل.

فصل

كان أصحمة يحس بتربص عمّه بأبيه الملك، ويعلم أنه يتصنع المودة ويبطن البغض والحسد والغدر، ولكن ما الحيلة وهو بعد لم يبلغ الحلم، ومهما قال من شيء، فسينهره أبوه الملك وسيحمل كلامه على قلّة عقل الأطفال.

كان أصحمة يحب أباه كثيرًا، وينظر إليه نظر المعجب والمفتخر، فأبوه ملك الحبشة العظيم و سيدها المطاع، لكن كانت بطانة أبيه على الضد من ذلك، إذ لم تكن تُكنُّ لأبيه ما يكنه هو له، وكان الغش والغدر تنمو بذورهما في قلوبهم إلى أن اجتمعوا يومًا فقالوا:

-لو أننا قتلنا الملك، وملّكنا عليه أخاه، فإنه لا ولد له غير هذا الغلام، وإن لأخيه من صلبه اثني عشر رجلًا، فتوارثوا الملك بعده، وبقيت الحبشة بعده دهرًا.

وما هي إلأ أيام، حتى تحوّل قولهم إلى فعل، فأصبح الناس وإذا ملكهم قد قُتل، وأخوه قد نُصّب مكانه، وسط ذهولهم وتعجّبهم، وكان أشدهم ذهولًا أصحمة. ولم يتعرّض له عمه بسوء، بل ربّاه ورعاه، حتى قوي عوده وبلغ مبلغ الفتيان، وصار يلفن الأنظار برجاحة عقله، وحزمه وعزمه، فبلغ من عمه كل مبلغ، وأحبه حبًا شديدًا، وصار يقدّمه على بنيه الإثني عشر، ولا يكاد يترك موقفًا، ولا مشهدًا، ولا عيدًا إلا ويصحبه معه، فلما رأت حاشية الملك حب عمه له قالوا:

-والله لقد غلب هذا الفتى على أمر عمه، وإنا لنتخوف أن يملّكه علينا، وإن ملّكه علينا ليقتلنّا أجمعين. لقد عرف أنّا نحن الذين قتلنا أباه.

فذهبوا إلى الملك، عم أصحمة، يلحّون عليه في قتله.

-إما أن تقتل هذا الفتى، وإما أن تخرجه من بين أظهرنا، فإنا قد خفناه عل أنفسنا.

-ويلكم! قتلت أباه بالأمس، وأقتله اليوم!؟، بل أخرجه من بلادكم.

وهكذا جرت السنة في الممالك؛ أن المتآمرين دائمًا ليس لهم وفاء ولا عهد، وأن الموافق لهم والمنتفع من أعمالهم وإن بلغ ما بلغ، حتى وإن صار الملك، فإنه لا يملك من أمره شيئًا معهم، وأنه سيظل ما عاش ألعوبة في أيديهم شاء أم أبى.

فأُخذ أصحمة إلى السوق، ونودي عليه كما ينادى على العبيد، بعد أن كان يتنعم في القصور، ويلبس أجود الثياب، ويأكل أطيب الطعام. فاشتراه تاجر بستمائة درهم، وألقاه في سفينة له، وأبحر به مبتعدًا عن أرض الحبشة.

****

لم يمض ذلك اليوم، إلا وقد مات الملك، ضربته صاعقة من السماء وهو في نزهة له في رحاب قصره، ففزع رجال الدولة بعد تجهيز الملك لدفنه إلى أبنائه ليملّكوا عليهم أحدهم، فإذا أكبرهم أحمق لا يصلح لشيء، وإخوته الباقون ليسوا أفضل حالًا منه، فهاجوا وماجوا، واضطرب أمر الحبشة واختل نظامها. فلما ضاق عليهم ما هم فيه، وكثرت القلاقل والفتن، اجتمعوا وتشاوروا:

-تعلمون والله أن ملككم الذي لا يقيم أمركم غيره، للذي بعتم في الصباح، فإذا كنتم تريدون أن ترجعوا إلى سابق عهدكم فأدركوه.

فخرجوا يبحثون عنه في كل مكان، شرقًا وغربًا، وبرًا وبحرًا، علّهم يجدون ذاك التاجر الذي ابتعاه منهم. حتى إذا أعياهم البحث أدركوا سفينته، فأحاطوا بها، وأخذوه منه غصبًا، ورجعوا بأصحمة إلى الحبشة، وألبسوه التاج وملّكوه عليهم.

وبعد أيام جاء التاجر إليهم مغضبًا:

-إما أن تعطوني مالي الذي أخذتموه مني، وإما أن أكلم ملككم في الذي كان منكم.

-لا نعطيك شيئًا.

-إذن والله أكلمه.

-اصنع ما شئت.

وما كانوا يظنونه يجرؤ على المثول بين يدي الملك طارحًا شكايته، ومدار شكايته على الملك نفسه، الذي بيع كما يباع العبيد.

-أيها الملك، ابتعتُ غلامًا من قوم بالسوق بستمائة درهم، حتى إذا سرت به أدركوني، فأخذوه مني، ومنعوني دراهمي.

ثم سكت، وكان هذا كل ما قاله، فقد خجل أن يقول للملك أنت ذاك العبد. فأطرق أصحمة، ثم نظر إلى حاشيته وصاح بهم:

-لتعطنّه دراهمه، أو ليضعن الغلام يده في يده، فليذهبن به حيث شاء.

فتعجبوا عجبًا شديدًا، وانقطعت أصواتهم، ولم يجدوا بدًا من أن يقولوا:

-بل نعطيه دراهمه.

فكان هذا أول ما خُبر منه من صلابته في الملك وسياسته وعدله، ومكث بادئ أمره يتربص بقاتلي أبيه، لكن دون أن يهيج الفتن والقلاقل في مملكته، بعد أن سكنت.

****

في هذا البلد الغريب عنهم، كان المهاجرون يحنون حنينًا شديدًا إلى بلدهم مكة، وإلى كل ما فيها من أشياء كبرت أو صغرت، حتى وإن لم تكن فيها أنهار الشام وعيونها، ولا جنان الأردن وحيطانها، فهي تبقى مكة، مسقط رؤوسهم، وملعب صباهم، ومهوى أفئدتهم، ولولا بطش قريش لما تركوها.

-صدق رسول الله، فإنه والله ملك لا يُظلم عنده أحد.

-نعم، آوانا وأحسن جوارنا.

-ما رأيت ملكًا في الزهد مثله، ألم تروا أنه لا يصنع كما يصنع الملوك، من توسع في الأكل والشرب، واتخاذ المصانع، وأوني الذهب والفضة والدور والقصور؟.

-صدقت، وجل ما نتمناه، أن تكون الأخبار التي سمعناها عن هذا الرجل الذي خرج في أطراف الحبشة معلنًا عصيانه للملك غير صحيحة.

لم تكن الأخبار كاذبة كما كان يرجو عثمان وأصحابه، بل كان هذا الرجل يحشد الأتباع، ويجمع الأموال، ويحاول أن يخفي أمره حتى يتم، وكان يريدها ضربة حاسمة، تُزيح أصحمة النجاشي عن ملكه، وتجلسه مكانه.

وبعد أن أتم استعداداته وحشد آلاف الرجال، خرج بهم للقاء النجاشي وهو لا يشك في النصر، ويعوّل كثيرًا على المراسلات والمكاتبات التي كانت وصلته من بلاط النجاشي، يعدُ مرسلوها أن ينحازوا إليه، ويتركوا النجاشي عند اصطدام الجيشين.

-إنا لله وإنا إليه راجعون، ظنون الأمس صارت اليوم حقيقة، وهذا الرجل يزحف بجيشه للقاء النجاشي.

-لا حديث غير هذا الحديث يشغل الناس، والكل خائف مترقب.

-النجاشي أكرمنا وآوانا، وإن غلبه هذا الرجل على ملكه، نخشى أن لا يرعى فينا حقًا، وأن يقتلنا أو يسلمنا لقريش.

-ليس لنا إلا الدعاء، هلمَّ إلى الدعاء.

ولأن القلق كاد يقتلهم قال عثمان:

-يا إخواني، لم لا يخرج أحدنا يرقب المعركة، ويأتينا بالخبر.

-نعم الرأي.

-أنا لها.

-يا زبير، إنك أصغرنا سنًا، وبيننا وبين أرض المعركة النهر.

-لست بأجبنكم، وإني أعرف السباحة.

-مع ذلك فإنا سننفخ لك قربة، ونجعلها في صدرك، فهذا أفضل، فإنا نخشى عليك الغرق.

وانطلق الزبير وغاب في الماء، وطالت غيبته، وهم على ضفاف النهر يرقبون وينتظرون. وكادت الشمس أن تغيب، والزبير لم يعد بعد، والرجال لفرط خوفهم على نسائهم في المقام الأول، وعلى أنفسهم في المقام الثاني، لا يفارق الدعاء ألسنتهم.

-ما هذا السواد في النهر!؟.

-لعله الزبير!.

-كن الزبير.

وما هو إلا قليل حتى تحققوا السواد، فإذا هو الزبير يلوّح بردائه يصيح:

-ألا فأبشروا، فقد أظهر الله النجاشي.

فتعانق الرجال، وتعانقت النساء، وتحلقوا حول الزبير فور خروجه من الماء.

-ها، قل لنا كيف كانت الوقعة؟.

-هل قُتل ذلك الخارج العاصي؟.

-هل أسره النجاشي؟

-قد والله كانت وقعة عظيمة، بدأ فيها القتال بعد بزوغ الصبح بقليل، واحتدم أشد الاحتدام، وجالت خيل الخارج في معسكر النجاشي، وانحاز بعض قادته إليه وأوشكت الهزيمة، لكن الله ربط على قلب النجاشي، فباشر القتال بنفسه، فقويت قلوب جنده، وكرّوا كرّة واحدة، كسروا فيها العدو، وسقط الخارج عن فرسه، فانهال عليه حرس النجاشي طعنًا بالسيوف والرماح، فمات من ساعته، وقد تركت النجاشي يضرب أعناق الخونة من قادته.

(فصل)

كان مشهد النبي صلى الله عليه وسلم مهيبًا، يوم وقف إلى جانب الكعبة وقرأ:

-" والنجم إذا هوى* ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى* إن هو إلا وحي يوحى * علّمه شديد القوىٰ * ذو مرة فاستوى * وهو بالأفق الأعلى * ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنىٰ * فأوحى إلى عبده ما أوحىٰ * ما كذب الفؤاد ما رأى".

واستمر في السورة يقرأ، فاكتظ الناس من حوله، وعلتهم جميعًا الرهبة، وتجمدوا في أماكنهم كأنهم تلك الأصنام التي يعبدونها، ولم يكن عوام الناس وحدهم الذين أُخذوا وما عادوا يدركون شيئًا حولهم إلا هذه الآيات، بل كان كبار كفار قريش كذلك، كانوا جميعًا مشدوهين وجلين من هذا القول الثقيل.

-" والمؤتفكة أهوى * فغشّاها ما غشّى * فبأي آلاء ربك تتمارى *هذا نذير من النذر الأولى* أزفت الآزفة * ليس لها من دون الله كاشفة * أفمن هذا الحديث تعجبون * وتضحكون ولا تبكون * وأنتم سامدون * فاسجدوا لله واعبدوا"

وسجد النبي صلى الله عليه وسلم من فوره في خشوع وسكينة، فتبعه المسلمون فسجدوا كما سجد، ثم كذلك المشركون وعلى رأسهم كبراؤهم، ما شعروا بأنفسهم إلا وهم يسجدون، حتى أن أمية بن خلف أراد السجود فلم يستطع، فأخذ كفًا من تراب، فسجد عليه. خلعت سورة النجم قلوبهم.

****

سارت الركبان بهذا الخبر، وانتشر في الآفاق، وبلغ كل مبلغ، ولم يكن شيء يفسر سجود المشركين ذاك خلف النبي صلى الله عليه وسلم، إلّا أنهم تبعوا ما جاء به من عند الله وآمنوا، حتى وصل الخبر إلى المهاجرين في الحبشة ؛ عثمان ومن معه.

-الله أكبر الله أكبر، أسلم أهل مكة.

-أحقًا ما تقول!؟، أواثق أنت يا مصعب.

-بلى وربي.

فمن أين أتيت بالخبر؟.

-إني وجدت قومًا من العرب هنا في الحبشة، جاءوا يتّجرون، فلما رأيتهم ملكني الحنين، فاقتربت منهم على وجل، خوف أن يكونوا من قريش وأنا لا أعرفهم، فيكون من ورائهم آخرون يبطشون بنا، حتى اطمأننت أنهم ليسوا من قريش وأنهم من خزاعة.

-إذن أنت من اللذين فرّوا من مكة وخرجوا منها؟.

-أجل، خرجنا منها منذ أقل من عام.

-فمن أي بطون قريش أنت؟

-من بني عبد الدار، وإني ماكث مع أصحابي حتى يقضي الله في أمرنا ما يشاء.

-عندنا ما يسرك ويسرهم فأبشر.

-ما يسرنا!، سألتك بالله حدثني.

-إن محمد بن عبد الله صاحبكم، وقف الشهر المنصرم بإزاء الكعبة، فقرأ شيئًا من الذي يقول أنه يوحى إليه، فما بقي رجل ولا امرأة في قريش، سمع منه تلك التلاوة، إلا خرَّ ساجدًا بعد فراغه منه.

-سجدوا!؟.

-إي والله سجدوا، وما ذاك إلأ لأنهم تبعوه، وكان أول الساجدين بعد أصحابه كبار رجال مكة.

-الحكم بن هشام، وأبو سفيان بن حرب، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة!؟.

-أجل، ومعهم عقبة بن أبي معيط، وطعمية بن عدي وزمعة بن الأسود.

****

تجهز المهاجرون للسفر والشوق يحدوهم إلى مكة، إلى الأهل والوطن، كان الشوق يلتهب في قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى مكة وهم يرسموها في عقولهم خالية من الأصنام، ومنطلق الدعوة إلى بلاد العرب، بل والدنيا وأسرها.

كان من حسن توفيق الله لهم أنهم وجدوا سفينة كبيرة أقلّتهم، والجميع طيبةٌ نفوسهم، أشدهم سرورًا عثمان؛ فقد كان ما يزيده سرورًا، نظره إلى ابنه عبد الله وهو بين ذراعي أمه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

-أبشر يا أبا عمرو، فقد رزقك الله بمولود ذكر.

-الحمد لله الحمد لله، بشركِ الله بالجنة يا أم سلمة، وإني أتكنّى من اليوم بأبي عبد الله.

-أنبته الله نباتًا حسنًا، وهنيئًا لك مولود جده رسول الله صلى الله عليه وسلم.

طيلة طريق السفر في عرض البحر، لم يكن هناك ما يكدّر صفو سعادتهم، اللهم إلا بعض الأمواج والعواصف الخفيفة، وما هو إلا يوم وليلة حتى وصلوا شاطئ بلادهم، شاطئ جزيرة العرب.

وعند وصولهم مشارف مكة، كان الجميع على قدر سرورهم وابتهاجهم بتلك الأنباء عن إسلام أهل مكة، بقدر ما كان الغم يكاد يقتلهم لمّا علموا أن تلك الأنباء ما كانت إلّا كذبًا، وأن سبب تناقل الناس لها، ما كان من سجود أهل مكة خلف النبي صلى الله عليه وسلم. والحقيقة أنهم بعد سجودهم ذاك ما آمنوا، بل استمروا على كفرهم. ولمّا كان الحال كذلك رأى قسم من

المهاجرين، أن الرجوع من حيث أتوا هو الصواب، ورأى بعضهم أن يدخل مكة مستخفيًا، أو في جوار رجل من قريش.

-لن أعود من حيث أتيت، ولو كان على حساب نفسي.

-وما العمل يا أبا عبد الله، وقد علمت أنّا إذا دخلنا مكة، عادت قريش فينا سيرتها الأولى.

-أدخل مكة في جوار رجل من قريش، فإني لا أطيق فراق رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي يبقى والذي يعود، له الأجر إن شاء الله.

وقد كان الأمر أشد من ذي قبل، فأذى قريش تضاعف، وبطشهم بالمستضعفين زاد، لذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى، وكان عدد المهاجرين هذه المرة أكثر، فقد كانوا ثلاثة وثمانين رجلًا وتسع عشرة امرأة، وكان على رأسهم ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم جعفر بن أبي طالب، أما عثمان فقد مكث في مكة ولم يهاجر.

وكان حقد مشركي قريش وتغيّظهم على الإسلام وأهله يربو وينمو، فهم يرون الإسلام يفشو في القبائل، وهاهما حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب قد أسلما وأعزَّ الله دينه بهما. لذا ذهبوا إلى بني هاشم وكلموهم في تسليم النبي صلى الله عليه وسلم لهم، إلّا أن بني هاشم رفضوا أشد الرفض، وأجمعوا أمرهم على منعه صلى الله عليه وسلم مما يمنعون منه أبناءهم، ونساءهم وأموالهم، ففرض كفار قريش على بني هاشم حصارًا، فلم يبتاعوا منهم ولم يتزوجوا منهم، ومنعوا عنهم كل شيء، ودخل بنو هاشم شعب أبي طالب مسلمهم وكافرهم، صابرين على الجوع والعطش والعوز فداء لمحمد صلى الله عليه وسلم.

لبثت هذه المقاطعة الآثمة ثلاث سنوات ثم أن أراح الله نبيه والمسلمين منها، لمّا تعاقد رجال من قريش على نقض هذه الصحيفة الحاكمة بها، إلّا أن موت عم النبي أبا طالب، وبعده بيسير زوجه خديجة بنت خويلد، كانا

شديدين على النبي صلى الله عليه وسلم، فخديجة وطنه ومستراحه، وعمه أبو طالب مانعه وناصره، وما من أحد كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهديه الله للإسلام منه، إلا أن روحه خرجت وهو يقول:

- على ملة عبد المطلب.

فخرج النبي صلى الله عليه وسلم بعد موت عمّه أبي طالب إلى الطائف، يدعوهم إلى الله علَّ الله يهديهم، ويجعل له بهم منعة ونصرة، إلّا أنهم لم يجيبوه، بل ردّوا عليه بأقبح رد، وأغروا به سفهاءهم وصبيانهم، فجعلوا يرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه.

وسط هذا الابتلاء الشديد، جاءت للنبي صلى الله عليه وسلم هدية جليلة من ربه؛ رحلة ليلة، مبتدؤها فراشه في مكة ومنتهاها السماوات العلى، أُسري به يومها من مكة صحبة جبريل عليه السلام على دابة البراق إلى المسجد الأقصى، فصلّى بإخوانه الأنبياء، ثم عُرج به إلى السماء، ومرَّ بأبويه آدم وإبراهيم عليهما السلام، وإخوانه يحيى وعيسى ويوسف وإدريس وهارون وموسى عليهم السلام، حتى انتهى إلى سدرة المنتهى، تلك الشجرة العظيمة، التي جذورها في السماء السادسة، و لها من الحسن ما لا يستطيع تصوره بشر، وعندها عاين جنة المأوى، والنار وحال أهلها، ثم فُرضت عليه الصلوات الخمس، وعاد بعدها على البراق الذي أُقلّه بادئ الأمر، فوصل مكة قبل الصبح.

صبيحة اليوم التالي مر به أبو جهل:

-هل كان من شيء؟

-نعم.

-ما هو؟.

-إنه أُسري بي الليلة.

-إلى أين؟

-إلى بيت المقدس.

-ثم أصبحت بين ظهرانينا!؟.

-نعم.

فتعجّب عدو الله، وظن أنها الفرصة ليثبت زعمه في أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس صادقًا، فأرى النبي أنه قد صدّقه مخافة أن يجحد النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحديث إن دعا قريشًا لتسمع.

-أرأيت إن دعوت قومك، تحدثهم بما حدثتني؟.

-نعم.

فهرع مسرعًا إليهم يدعوهم ليسمعوا ما سمع، وهو لا يطيق صبرًا، فأتو جميعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

-حدّث قومك بما حدّثتني.

-إني أُسري بي الليلة.

-إلى أين؟.

-بيت المقدس.

-ثم أصبحت بين ظهرانينا!؟.

-نعم.

فعلت أصواتهم ساخرين بين مصفّق وواضع يديه على رأسه متعجبًا.

-وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد؟

وفيهم من كان سافر إلى الشام ورأى المسجد الأقصى، فشرع النبي صلى الله عليه وسلم ينعته، فما أخطأ من صفته شيئًا، ولم يكن زاره قط قبلُ في حياته.

-أما النعتُ فوالله لقد أصاب.

إلأ أنهم استمروا في تكذيبه.

-إن آية ما أقول لكم، أني مررت بعير لكم بمكان كذا كذا، قد أضلوا بعيرًا لهم، فوجده فلان فجمعه، وإن مسيرهم ينزلون بكذا وكذا، ويأتونكم يوم كذا وكذا، يقدُمهم جملٌ آدم عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان.

-انظروا إليه كيف يحدث حديث الواثق!.

-أمهلوه، وانظروا الموعد الذي حدده، فإنه وقتها يظهر لكم خلاف ما يقول.

فتركوه وهم مطمئنون إلى أنهم قد حاجّوه، ولم يكن لهم حديث طيلة ذلك النهار، إلا التكذيب والسخرية بما حدّثهم به النبي صلى الله عليه وسلم، بل وذهبوا إلى صاحبه أبي بكر ساخرين.

-هل لك إلى صاحبك، يزعم أنه أُسري به الليلة إلى بيت المقدس.

-أو قال ذلك؟.

-نعم.

-لئن كان قال ذلك لقد صدق.

-أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح!؟.

-نعم، إني أصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة.

وهكذا كان رد المؤمنين أمثال عمر، وعثمان، وحمزة، وعمار وغيرهم، والمشركون على ضحكهم وسخريتهم، وهم يرون أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قال أخيرًا شيئًا يستطيعون أن يسموه كذبًا، فهو طيلة حياته بينهم كل هذه السنين، لم يجرّبوا عليه كذبًا، لا قبل البعثة، ولا بعدها قط، بل كانوا جميعًا يشهدون له بالصدق والأمانة، ولم تُلجَم ألسنة القوم، إلّا حين أتى اليوم الذي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن عيرهم تصل فيه، فخرجوا إلى ظاهر مكة ينتظرون، حتى إذا انتصف النهار، أقبلت العير، يقدمها الجمل، سواءً بسواء كما أخبر، فبُهت القوم.

(فصل)

شاء الله للفرج أن يقدم، لما التقى النبي صلى الله عليه وسلم قومًا من الخزرج قادمين من يثرب للحج، فدعاهم إلى الإسلام فأجابوه، ولمّا كان العام

الذي تلاه، قدم عليه اثنا عشر رجلًا منهم فبايعوه، وأرسل معهم مصعبَ بن عمير يعلمهم القرآن وفرائض الإسلام، حتى فشا الإسلام في يثرب، وعادوا إلى مكة مبايعين للنبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام، وكانوا سبعين رجلًا وامرأتين؛ بايعوه يومها على السمع والطاعة، وأن ينصروه ويمنعوه إذا قدم عليهم، مما يمنعون منه أنفسهم، وأزواجهم وأبنائهم. وعلمت قريش بالأمر، فنذروا بهم، إلا أنهم لم يدركوا منهم أحدًا إلا سعد بن عبادة أمسكوا به، وانهالوا عليه ضربًا، ثم جاء المطعم بن عدي والحارث بن حرب فخلّصاه من أيديهم، لصداقة كانت بينهم وبين سعد.

وكان من أمر كفار قريش بعد علمهم بأمر هذه البيعة، أن ضيقوا الخناق أكثر على المسلمين، وزاد بطشهم بهم وعدوانهم عليهم، إلى أن جاء الأمر من الله والإذن منه بالهجرة إلى يثرب؛ يثرب موطن أولئك الرجال المخلصين من الأوس والخزرج والذين عرفوا بعدُ بالأنصار.

-عجلّي يا رقية، فلا وقت لدينا.

-كدت أفرغ. هل سيرافقنا أحد من إخواننا؟.

-لا، فالأسلم أن نهاجر أرسالًا، كي لا يعلموا بأمرنا فيتقبضوا علينا.

-وأبي!، متى سيهاجر؟، ومع من ؟.

-حتى يأذن الله له، وسنكون في انتظاره في يثرب.

كان الطريق من مكة إلى يثرب طويلًا وصعبًا، والمشقة كبيرة على الزوجين وابنهما عبد الله، الذي مضى من عمره سنتنان فحسب. وكان عثمان الذي مضى من عمره سبعة و أربعون سنة، والتي أمضى منها للآن ثلاثة عشر سنة في الإسلام، طيلة طريق السفر يتنقل بين أحوال ثلاثة؛ فتارة يتقدمهم إذا تذكر غوائل الطريق، وتارة يمشي خلفهم إذا تذكر الطلب، وتارة يمشي بحذائهم يؤنسهم بنفسه.

****

وفي يثرب، لم يكن المسلمون يُرجعهم إلى بيوتهم، وهم ينتظرون على مشارف المدينة قدوم النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبي بكر، إلّا اشتداد الحر وقت الظهيرة، ومكثوا على ذلك أيامًا. كان الشوق لرسول الله يلتهب في صدور الجميع، صدور الذين رأوه وعاشوا معه من جهة، كعثمان وعمر وطلحة والزبير، وفي صدور الذين لم يتشرّفوا بعدُ برؤيته من الأنصار.

لم تهدأ نفوسهم ولم تطب خواطرهم إلا يوم الإثنين، الثاني عشر من ربيع الأول لأربعة عشر سنة خلت من البعثة، لمّا علا صياح يهودي من فوق حصن له:

-يا معشر العرب!، هذا جدكم الذي تنتظرون.

فخرج الناس أفواجًا إلى ظاهر الحرة، يستقبلون النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كانوا رجعوا إلى بيوتهم لما اشتد الحر يومها كالعادة.

كان في استقباله خمسمائة رجل من الأنصار، أحاطوا به وبصاحبه أبي بكر وهما راكبان، متقلدين السيوف، ومضى الموكب النبوي حتى دخل يثرب، والمنادي ينادي:

-جاء نبي الله، جاء نبي الله.

وصعد الرجال والنساء فوق البيوت، ينظرون إلى الشمس طالعة في وجهه الشريف، وتفرّق الغلمان في الطرقات يقولون:

-يا محمد يا رسول الله، يا رسول الله.

وكان جميع الأنصار تتطلع نفوسهم لاستضافة رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيوتهم، وكلّما مر بدار أحدهم ألحَّ عليه بالنزول وهو يقول:

-دعوا الناقة فإنها مأمورة.

بقيت الناقة تتقدم حتى بركت على باب أبي أيوب الأنصاري فنزل عنده، واقترع الأنصار على سكنى إخوانهم المهاجرين، كلٌ يريد أن ينزل أخوه المهاجر عنده، وآثروهم على أنفسهم، وقاسموهم المال، والمتاع، والطعام والشراب."والذين تبوّءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون".

وكان أوّل ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم بناء المسجد، فهب الجميع، المهاجرون والأنصار. كانوا يعملون والسرور باد عليهم ينشدون:

-اللهم إنه لا عيش إلا عيش الآخرة......فارحم الأنصار والمهاجرة

لئن قعدنا والنبي يعملُ.........لذاك منّا العمل المضللُ

ثم بعد إتمام المسجد، وقف الجميع كالبنيان المرصوص خلف النبي صلى الله عليه وسلم إمامًا بهم، فكانت تكبيرة الإحرام من شفتيه يومها لها طعم آخر ووقع عجيب على النفوس.

-الله أكبر.

استُفتحت الصلاة بهذه التكبيرة من شفتي نبيهم، وفي مسجدهم، ومدينتهم، وهم عباد الله الموحدون، جنده المخلصون، يقفون بين يديه متذللين خاضعين، وهم بين باك وخاشع.

****

لكي تزول وحشة الغربة عن المهاجرين، ولكي يأنسوا، ويتعوّضوا ولو بعض الشيء عن مفارقة الأهل والوطن، وليشتد أزر المسلمين بعضهم ببعض؛ المهاجرين والأنصار، آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم.

-تآخوا في الله أخوين أخوين.

آخى بينهم على الحق والمساواة والتوارث بعد الممات، فعانق خمسة وأربعون رجلًا من المهاجرين خمسة وأربعين رجلًا من الأنصار، وصار كل واحد منهم آخًا للآخر، أخوة أقوى من كل شيء. فتآخى أبو بكر الصديق وخارجة بن زيد، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك، وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، والزبير بن العوام وسلمة بن سلامة، وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك، وقال الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

-اقسم النخل بيننا وبين إخواننا.

-تكفوننا المؤونة ونشرككم من الثمرة.

-سمعنا وأطعنا.

ذهب بعد المؤاخاة أوس بن ثابت الأنصاري وعثمان بن عفان إلى دار أوس.

-على الرحب والسعة يا أبا عبد الله، لك نصف مالي، ولك نصف داري، طيبة بذلك نفسي.

-جزاك الله خيرا يا أبا شداد، فوالله لا تطيب نفوس قوم بما طات به نفوسكم.

-نحن إخوة يا أبا عبد الله في الدين قبل المؤاخاة الخاصة التي أمر بها نبي الله فكيف بعدها؟.

-لا حرمكم الله الأجر والمثوبة، وثبتنا وإياكم على هذا الدين حتى نلقاه.

-آمين.

وكتب بعدها رسول الله صلى الله عليه وسلم عهدًا بينه وبين اليهود الساكنين في المدينة وأطرافها؛ بني قينقاع وبين النضير وبني قريظة، أمنهم وأمنوه فيه ولو قليلًا، ثم جاء الأمر الإلهي بقتال قريش ومن سارعلى كفرهم.

-"إذن للذين يُقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير".

(فصل)

بعد السرايا الثلاث التي أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم؛ سرية عمه حمزة بن عبد المطلب، وسرية ابن عمه عبيدة بن الحارث، وسرية سعد بن أبي وقاص، بهدف تتبع عير قريش القادمة من الشام، قرّر بعد سنتين من هجرته أن يخرج بنفسه لتتبع عير لقريش. فخرج في ستين راكبًا كلهم من المهاجرين، كأبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم، حتى وصل منطقة تدعى الأبواء، وادعه فيها سيد بني ضمرة عمارة بن مخشي، ثم رجع النبي صلى الله عليه وسلم بمن معه ولم يلق كيدًا.

وخرج بعدها النبي صلى الله عليه وسلم إلى بواط، ثم إلى ينبع، يتتبع عيرًا أخرى لقريش، وفيها جميعًا لم يلق حربًا، وردًا على هذه السرايا والغزوات أراد المشركون أن يصنعوا شيئًا، وأن يُروا المسلمين من أنفسهم قوة، فغزا كرز بن جابر الفهري -وكان لم يسلم وقتها- على إثر رجوع النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة العشيرة المدينة، فغنم بعض مواشي المسلمين وانطلق بها، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم على إثره، حتى بلغ واديًا يسمى سفوان من ناحية آبار بدر، لكن كرزًا فاته ولم يدركه.

وفي كل تلك الغزوات والسرايا، كان المشركون يزدادون رعبًا من رسول الله والمسلمين، ويحسبون لهم حسابًا لم يكونوا يحسبونه من قبل، حتى كان ما وقع في سرية نخلة.

ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل ابن عمته عبد لله بن جحش، على رأس ثمانية رهط من المهاجرين، لنفس غرض الغزوات السابقة، وكتب لهم كتابًا أعطاه لعبد الله، أمره أن لا يفتحه حتى يسير ليلتين، فساروا ليلتين ثم فتحوا الكتاب فإذا فيه:

-امض حتى تبلغ نخلة.

فلمّا قرأه عبد الله قال:

-سمعًا وطاعة لله ورسوله، فمن منكم يريد الموت في سبيل الله فليمض، فأني ماض إلى أمر رسول الله.

فمضوا جميعًا إلى موضع نخلة، وما تخلف منهم رجل واحد، حتى إذا كانوا بموضع يدعى بحران، أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما كانا يتناوبان عليه، وأكمل الستة الباقون المسير، حتى وصلوا موضع نخلة في آخر يوم من شهر رجب من هذه السنة، فمرت بهم عير لقريش عليها أربعة من المشركين، وكان من عادة العرب أنهم لا يقاتلون ولا

يقتتلون في الأشهر الحرم؛رجبًا، وذا القعدة، وذا الحجة ومحرّمًا، تعظيمًا لها، فقال المسلمون بعضهم لبعض:

-والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم فيه، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام.

فترددوا كثيرًا، ثم أجمعوا أمرهم على قتالهم وأخذ القافلة، فتقاتلوا ساعة من النهار، فقُتل أحد المشركين، وأُسر اثنان، وفرَّ الرابع.

****

قدم عبد الله بن جحش ومن ومعه بالأسيرين والعير على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما علم الخبر قال:

-ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام.

ووقفَ الأسيرين، وأبى أن يأخذ من العير شيئًا، ولامهم إخوانهم المسلمون على ما صنعوا، وطارت الأخبار إلى مكة بما كان، فاجتمع كفار قريش وقال بعضهم لبعض.

-أرأيتم ما صنع محمد وأصحابه!؟، قد استحلوا القتال في الشهر الحرام.

-أجل، وأخذوا الأموال، وأسروا منا رجلين.

-فلنر ما يقول من آمن به من الذين بين أظهرنا. فإنه والله لا جواب لهم.

فكان جواب المسلمين الذين بمكة؛ أن هذا القتل والأسر إنما كان في أول يوم من شهر شعبان، لا في آخر يوم من رجب، وشعبان ليس شهرًا حرامًا، إلا أن ذلك ما أقنع كفار قريش، بل ووجدوا في هذا عيبًا لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، واشتد الأمر على عبد الله بن جحش ومن معه جدًا، لا سيما وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرض صنيعهم، وظنوا أنهم قد هلكوا، حتى أنزل الله على نبيه:

-"يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون".

فسُرّي عن عبد الله بن حجش وأصحابه، وعلموا أن ما كان حدث معم، إنما كان قدرًا مقدورًا، أوراد الله به ما أراد.

****

كان عثمان حريصًا غاية الحرص على ألّا يفوّت أي غزوة يخرج فيها النبي صلى الله عليه وسلم، لكنه في هذه الغزوة لن يستطيع الخروج لمرض زوجه رقية، ولأمر النبي صلى الله عليه وسلم له بلزومها.

كانت رقية طريحة الفراش من أيام خائرة القوى، نحيلة الجسد، قد بلغ منها المرض كل مبلغ، وبصوت ضعيف قالت:

-أبا عبد الله!.

-لبيكِ.

-أعلم أنك لا تتخلف عن غزوة يغزوها أبي، وقد سارعت إلى الخروج لما سمعت النداء، لكن مرضي خلّفك عنها.

-في كل خير إن شاء الله، وعسى الله أن يرد النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه منصورين غانمين، فعير قريش هذه المرة في قبضته إن يسر الله.

- آمين.

-اللهم رب الناس أذهب البأس واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقمًا.

-جزاك الله خيرًا ما جزى امرآةً عن زوجها، فأنك والله نعم الرجل والزوج.

-وأنت والله كذلك، كنت والله خير زوجة.

-ذلك أنني فوق حقك عليّ وإحسانك لي، لا أنسى قول أبي لي يوم دخل علينا و أنا أمشط شعرك، أتذرك؟

-بلى، أذكر.

-قال يومها:يا بُنية، أحسني إلى أبي عبد الله فإنه أشبه أصحابي بي خلقًا.

- بارك الله فيك، وأزاح عنك كل وجع وسوء.

أخذت رقية سنة من نوم، وعثمان جالس بحذائها علّها تحتاج أو تطلب شيئًا، وما هو إلا قليل حتى فتحت عينيها، وجالت ببصرها في الغرفة، ثم أدارت وجهها إلى عثمان فتبسمت، ثم شخصت ببصرها إلى السماء وقالت:

-أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

وفاضت روحها.

****

علم أبو سفيان بن حرب وقد كان على العير التي خرج النبي صلى الله عليه وسلم إليها، بتحرك النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، فأرسل رجلًا يدعى ضمضمًا الغفاري إلى قريش، يعلمهم الخبر ويستنجدهم، ولمّا وصل ضمضم هذا إلى مكة صاح بأعلى صوته:

-يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة ! أموالكم مع أبي سفيان، قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث.

فتحضّرت قريش جميعها، وأسرعوا في التجهّز للخروج.

-أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي!، كلا والله ، ليعلمن غير ذلك.

-يا قوم من استطاع أن يخرج فليخرج، ومن لم يستطع فليجهّز رجلًا مكانه.

-هو كما قلت يا أبا الحكم.

-أما أنا فلا أستطيع الخروج.

-ولم يا أبا لهب! أليس لك في العير ما لنا!؟

-بلى، ولكن لي على العاص بن هشام أربعة آلاف درهم، وقد أفلس، وما أظنه يقضيني ديني، إني أبعثه مكاني.

-أجل، تخلف كما تتخلف النساء.

فقام أبو لهب مغضبًا، وأبو جهل، وعقبة بن أبي عيط، وعتبة بن ربيعة لا يزالون يسخرون منه.

-لو تعلم يا أبا الحكم ما صنعتُ بأمية بن خلف، وقد أراد التخلّف كأبي لهب.

-ما صنعت به؟.

-رأيته جالسًا قرب البيت بين ظهراني قومه، فأتيت بمجمرة، فوضعتها بين يديه وقلت له: استجمر، فإنما أنت من النساء، فضحك القوم منه.

-فما أجباك!؟.

-قال: قبّحك الله، وقبح ما جئت به.

-وما صنع؟.

-تركته يتجهّز للخروج مرغمًا.

-والله ما منعه إلا الجبن.

وخرج جيش المشركين من مكة مدجّجين بالسلاح، وهم ألف رجل أو يزيدون، فيهم مائة فارس وإبل كثيرة، وعلى رأسهم أبو جهل، ومعهم القيان يضربن بالدفوف، ويغنين بهجاء المسلمين.

وفي طريقهم وصلهم من أبي سفيان من أخبرهم، أنه نجا بالقافلة وسلك طريقًا آخر، وأن يعودوا إلى مكة فما عاد لخروجهم داعٍ، فجلس كبراؤهم للمشورة.

-والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم ثلاثًا، ننحر الجزر ونطعم الطاعم، ونسقي الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب، وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا.

-هو ما قلت يا أبا الحكم.

-امض بنا يا أبا الحكم.

****

علم النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه باقتراب جيش المشركين، فشاور أصحابه في ملاقاتهم وهم في قلّة، ولم يكن في حسبانهم أن سيكون قتال مع مثل هذا العدد، فقال المقداد:

-يا رسول الله، لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى"اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون" ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك.

وهذا كان ردَّ المهاجرين، ولم يكن ردّ الأنصار بأقلَّ منه، إذ قال سيدهم سعد بن معاذ:

-لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، وإنا لصُبرٌ في الحرب صُدقٌ عند اللقاء، ولعل الله يريك ما تقر به عينيك، فسر على بركة الله.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

-سيروا و أبشروا، فأن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم.

وحانت ساعة اللقاء، واصطف الفريقان في شهر رمضان في السابع عشر منه، لسنتين خلتا من الهجرة، فبرز أول الأمر، ثلاثة من المشركين؛ شيبة بن ربيعة، وابنه الوليد وعتبة بن ربيعة، فخرج لهم من المسلمين حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث، فقتل حمزة شيبة، وقتل علي الوليد، واختلف عبيدة وعتبة ضربتين بالسيف كلاهما قاتلة، فكرَّ حمزة وعلي على عتبة فقتلاه، وحملا عبيدة إلى المسلمين جريحًا.

فهجم المشركون هجمة رجل واحد، والمسلمون يرفعون أصواتهم بشعارهم:

-أحدٌ أحد.

واحتدم القتال، وعلا الغبار أرض المعركة، واستبسل جند الله تقاتل معهم الملائكة على رأسهم جبريل الأمين، فما هو إلّا أن كتب الله النصر لنبيه، وهزم الله المشركين وركب المسلمون أكتافهم، وقتل منهم سبعون، وأُسر سبعون، وكان على رأس من قُتل، رأس الكفر، أبو جهل .

****

كان عثمان فيه من الحزن ما فيه على وفاة زوجه رقية، وقد دفنها من قريب في البقيع، إذ أقبل زيد بن حارثة على ناقة رسول الله يبشر الناس:

-أبشروا، أبشروا، قد نصرنا الله على المشركين، فقتلنا منهم وأسرنا، وهذا رسول الله في المسلمين، قادم عليكم بالغنيمة.

-الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده.

-الحمد لله، الحمد لله.

وما هو حتى قدم النبي صلى الله عليه وسلم فيمن معه المدينة، فاستقبله المسلمون يكبّرون، ويحمدون الله على النصر، يتوسطهم عثمان. وبعد أن انفض الزحام قليلًا، سأل النبي صلى الله عليه وسلم عثمان عن حال رقية، فسالت على وجه عثمان عبرة حارة، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنها توفّيت، فحزن النبي صلى الله عليه وسلم على فراق ابنته، وسالت على خده الشريف، عبرة الوالد الفاقد، وذهب مع عثمان إلى قبرها، فسلّم عليها، ودعا لها واستغفر، ثم ضرب لعثمان بسهمه من الغنائم كأنه شهد بدرًا معهم، فما خلّفه إلّا تمريض ابنة النبي، فصار في عداد البدريين.

ولم يمض على غزوة بدر سبعة أيام، حتى علم النبي صلى الله عليه وسلم أن قريشًا قد واعدت قبيلتي سُليم وغطفان على غزو المدينة، وأن سُليمًا وغطفان قد تجمّعوا في موضع ماء يُدعى قرقرة الكدر، فخرج إليهم في مائتي مقاتل فيهم عثمان بن عفان، و سار النبي صلى الله عليه وسلم حتى وصل الماء، فلم يجد أحدًا من المشركين، وإذا هم قد فرّوا إلى رؤوس الجبال، مخلفين وراءهم في بطن الوادي خمسمائة بعير، فغنم النبي صلى الله عليه وسلم ما تركوا، وأقام في الوادي ثلاثة أيام، ثم رجع إلى المدينة غانمًا منصورًا.

****

ولازدياد أذى اليهود وتآمرهم الدائم مع المشركين ومنافقي المدينة، جمعهم النبي صلى الله عليه وسلم يومًا، وحذّرهم عاقبة غيّهم وبغيهم، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبدأهم العداوة، ولا ظلمهم، ولا انتقص حقًا لهم، بل كان كتب بينه وبينهم صحيفة فيها مالهم وما عليهم ،فذكّرهم ما فعل الله بالمشركين في بدر، فردّوا عليه:

-يا محمد، لا يغرّنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا.

وهكذا كانت معاملة النبي صلى الله عليه وسلم لهم، ومعاملتهم له وللمسلمين، حتى كان من أمر بني قينقاع منهم ما صنعوه بتلك المرأة المسلمة، لمّا ذهبت إلى أحد الصاغة من اليهود تشتري حُليًّا لها، فقال لها اليهودي:

-اكشفي عن وجهك نراه.

-قاتلك الله!، ألمثلي تقول هذا، وأن الحرة العربية المسلمة!؟.

وبسخرية وتقاوٍ عليها، قام وحاول كشف وجهها رغمًا عنها، فصاحت:

-إليك عني عدو الله.

فقام آخر فربط ثوبها بأعلاه من ظهرها، وهي مشغولة بدفع الأول، فلما وقفت ارتفع ثوبها فانكشفت، فأخذت تصيح وتبكي، وهم حولها يضحكون، فسمعها رجل مسلم كان قريبًا، فاقترب ليعرف الخبر، فلما رآها أسرع لتخليصها، فتكاثروا عليه فقتلوه رحمه الله.

ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم بالأمر، سار من فوره معه المهاجرون والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فحاصرهم خمسة عشر ليلة، ودب الرعب في قلوبهم، وآثروا السلامة فنزلوا على حكم المسلمين، فشرط

رسول الله عليهم أن يجلوا عن المدينة إلى خارجها، وأن يتركوا وراءهم أموالهم وسلاحهم، فتركوا ذلك كله، وخرجوا لا يلوون على شيء.

وكان من غدر اليهود كذلك، ما كان من أمر تواطئهم مع مشركي قريش، لمّا قدم أبو سفيان في مائتي راكب المدينة سرًا، والحقد يملأ قلوبهم لما صنعه الله فيهم في بدر، فنزل عند سلام بن مشكم سيد يهود بني النضير ليلًا، فسقاه، وأعلمه أخبار المسلمين، وأماكن تواجد حرس المدينة ومنافذها. فلما أصبح أبو سفيان، أغار على أطراف المدينة، فقطع نخلًا كثيرًا، وقتل رجلًا من المسلمين وكرَّ راجعًا.

فلما بلغ الخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، خرج بمن خفَّ من أصحابه، فكان ممن خف وأسرع عثمان بن عفان، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم في مطاردته لأبي سفيان ماء يسمى قرقرة الكدر، فلما خاف أبو سفيان ومن معه أن يُدركوا، ألقوا من أزوادهم من السويق وهو طعام يُصنع من الدقيق والشعير شيئًا كثيرًا، لتكون حركتهم أخف، فلاذوا بالفرار، ولم يدركهم النبي صلى الله عليه وسلم فرجع إلى المدينة.

(فصل)

كان لصراخ أحدهم:

-ألا إن محمدًا قد قُتل.

وقع شديد على كثير من المسلمين، فقد كان وقعه على آذانهم، أشد عليهم من فقد أهليهم و أموالهم، ولم يكن أحد منهم قبل بدء المعركة، يظن أن تنقلب النتيجة بهذه الصورة، حتى بعد أن رجع زعيم المنافقين عبدالله بن أُبي بن سلول بثلاثمائة رجل، وهم في طريقهم للقاء العدو في أحد، إذ لم يكن أحد يشك في النصر، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله.

لم يشعروا إلا وخيل قريش قد صارت خلفهم تقتل فيهم، والمنهزمون من قريش، عادوا أدراجهم، وباشروا الهجوم ثانية، وصار المسلمون في حيص بيص، محاصرين من أمامهم ومن خلفهم، لكن ما كان أشد وقعًا على المسلمين من رؤيتهم إخوانهم يتساقطون شهداء، و تلك الجراحات البالغة التي أدمت أجسادهم، صرخة ذلك الصارخ:

-ألا إن محمدًا قد قُتل.

مهما كانت نتيجة المعركة من هزيمة أو نصر، فإن المسلمين كانوا دائمًا يوطنون أنفسهم على الثبات حتى النهاية، حتى ينالوا إحدى الحسنيين؛ النصر أو الشهادة، وليست قلة عددهم، وكثرة عدوّهم سببًا كافيًا للفرار، ولكن خبر مقتل النبي صلى الله عليه وسلم في ميدان المعركة كان أشد من كل شيء.

لما غادر عثمان أرض المعركة، لم يغادرها وهو واعٍ لما يفعل، كان مشدوهًا مصدومًا، وبقي هكذا يبتعد وجراحاته تنزف، وهو لا يدرك ماذا يفعل، أو أين يذهب، وكل ما كان يتردد في ذهنه، ويتمتم به وحده:

-أحقًا قُتل رسول الله!؟.

أما في أرض المعركة، فقد كان أثر الصدمة على جمع آخر من المسلمين له صورة أخرى، فإنهم لما سمعوا الخبر، سقطت سيوفهم من أيديهم، وجلسوا مطرقين وكأنما على رؤوسهم الطير، لا يتحركون من فرط الغم، حتى مر بهم أنس بن النضر وقال لهم:

-ما بالكم ألقيتم السلاح؟

-قُتل رسول الله.

-فماذا تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم!؟، قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله.

ثم اخترق الصفوف فلقي سعد بن معاذ.

-يا سعد! إني لأجد ريح الجنة دون أُحد.

ثم غاب عن الانظار وسط جموع المشركين، فقاتل حتى قُتل شهيدًا.

ثم إنه كان هناك قسم ثالث من المسلمين، كان الأمر عندهم على خلاف باقي إخوانهم، فقد سمعوا صوتًا مألوفًا وحبيبًا إليهم يصيح في ثبات:

-إليَّ إليَّ.

فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم واقف ثابت، مقبل غير مدبر يواجه المشركين، وهم من خوفهم منه يرمونه بالنبل، ولا يجرؤ أحد منهم على الدنو منه، فأسرع أبو دجانة الأنصاري إليه وألقى نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصار النبل يقع على ظهره، وهب رجال آخرون من الأنصار إلى رسول الله، فقتلوا جميعًا دونه طيبةً نفوسهم بالموت.

وما كان سبب شيوع خبر مقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا لأن عبد الله بن قمئة الليثي أحد المشركين، قتل مصعب بن عمير، فظن أنه قتل النبي صلى الله عليه وسلم، فصاح بأعلى صوته:

-قتلتُ محمدًا.

وتلاحق آخرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيهم أبو بكر، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام وأبو عبيدة بن الجراح، فاستماتوا في الدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم إنه أمرهم أن يصعدوا الجبل، فأقبل أُبيّ بن خلف شاهرًا سلاحه، وقد كان حلف بمكة أن يقتل محمدًا صلى الله عليه وسلم فقال:

-يا كذّاب أين المفر!؟

فانقض عليه النبي صلى الله عليه وسلم، فطعنه في جيب درعه، فوقع يخور خوار الثور، وتمكن النبي صلى الله عليه وسلم من الصعود إلى رأس الجبل بمن معه، وغادر المشركون أُحدًا، لعلمهم باستقتال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم دون نبيهم، لكن بعد أن مثّلوا بقتلى المسلمين.

ولم تطب نفس عثمان ولم تهدأ، حتى بعد اطمئنانه على النبي صلى الله عليه وسلم، خوفًا من صنيعه يوم غادر المعركة، إلا عندما سمع النبي صلى الله عليه وسلم يتلو قوله تعالى:

-"إن الذين تولّوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا عنهم إن الله غفور رحيم".

كان يسمع هذه الآيات ويردد والدموع تبل لحيته:

-"ولقد عفا عنهم"، الحمد لله رب العالمين.

ثم إنه بعد أُحد بيوم، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن شهد معه أُحدًا وجراحاتهم بعد تنزف، وهو نفسه صلى الله عليه وسلم قد شُجَّ وجهه، وكسرت رباعيته، فانطلق بهم حتى بلغ حمراء الأسد، فلما علمت قريش بخروجه، آثرت الهرب خوفًا منه، فرجع النبي وأصحابه إلى المدينة منصورين.

****

بعد أيام جاء عمر بن الخطاب إلى عثمان في أول النهار بعد أن صلّوا الصبح.

-السلام عليك يا أبا عبد الله.

-وعليك السلام ورحمة الله، أهلًا أبا حفص.

-كيف أنت؟

-بخير والحمد لله.

-إنك يا عثمان نعم الرجل، ولا أزكيك على الله، وإني عارض عليك أمرًا، فانظر فيه رأيك، قد علمتَ ما كان في أُحد، وما أصابنا من قتل وجراحات كثيرة، وقد علمت أن زوج ابنتي حفصة خنيس بن حذافة، قد توفّاه الله على إثر جراحه في أحد.

-نعم علمت، رحمه الله وتقبله.

-آمين، وإني نظرت في رجال المسلمين وكلهم على خير، وإنك من خير قريش ومن أحب خلق الله إليّ.

-جزاك الله خيرًا على حسن ظنك.

وسكت عثمان سكتة لم يفهما عمر، وسلم كلٌ منهما على صاحبه، وانطلق كلٌ إلى حاجته.

لم يكن عمر يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ذكر ابنته حفصة يريدها زوجة له، لذا عرض على عثمان ما عرض وعلى أبي بكر قبله، لكن أبا بكر وعثمان ما كانا يريدان أن ينقلا عن رسول الله أمرًا لا يريد أن يبديه الآن.

وبعد صلاة العصر، علم النبي صلى الله عليه وسلم بما كان بين عثمان وعمر، فقال لعمر:

-ألا أدلُّ عثمان على من هو خير له منها- أي من حفصة -، وأدلّها على من هو خير من عثمان؟

فتزوج النبي صلى الله عليه وسلم حفصة، فكان والله خيرًا لها من عثمان، وزوّج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته أم كلثوم لعثمان. لم يكن عثمان يظن أن أحدًا من أهل المدينة أسعد منه وأطيب نفسًا، فقد نال الشرف مرة أخرى، شرف مصاهرة النبي صلى الله عليه وسلم، وتزوج ابنته أم كلثوم، وهو لا

يفتأ يذكر رقية، وقد مضى على وفاتها سنة. وكما كانت رقية، كانت أم كلثوم، خيرًا مما يأمّل عثمان، حسنة الأخلاق، كريمة الطبائع، ولم يحتج عثمان لكثير وقت ليعلم ذلك، بل رآه وعاينه من أول يوم، ورأى عوض الله له بأم كلثوم مكان رقية، وما زاده سرورًا قول النبي صلى الله عليه وسلم:

-ما زوّجت عثمان أم كلثوم إلّا بوحي من السماء.

وقال له قبلها:

-يا عثمان، هذا جبريل يخبرني أن الله زوجك أم كلثوم بمثل صداق رقيّة، وعلى مثل صحبتها.

****

ومن قديم الزمان، كان الماء شحيحًا في جزيرة العرب، وكثيرًا ما كان الجدب يهلك المواشي والزرع والناس، ولم يكن للعرب ماء يشربونه إلّا مياه الآبار، وبعض الينابيع هنا وهناك، وهكذا كان حال المدينة، قليلة المياه، إلا أن أعذب مياهها كان بئرًا تُسمى رومة، لرجل من بين غفار، وكان المسلمون يستقون منها بالثمن، فأرهقهم ذلك، فاستدعى رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب البئر.

-تبيعنيها بعين في الجنة؟

-يا رسول الله، ليس لي ولا لعيالي غيرها.

فتركه النبي صلى الله عليه وسلم وانطلق، وقال حاثًا أصحابه:

-من يشتري بئر رومة، فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين، بخير له منها في الجنة؟.

فبلغ ذلك عثمان فأتى الغفاري.

-أتبيعني البئر؟

-يا أبا عبد الله، قد والله كلمني فيها من هو خير مني ومنك؛ رسول الله، وما كان شيء أحب إلي من إجابته، لكنه ليس لي ولعيالي مال غيرها.

-أرضيك بالثمن يا أخي.

-لا أظن أن أي ثمن يجعلني أبيعها.

-أعطيك فيها خمسة وثلاثين ألف درهم.

-خمسة وثلاثون ألف درهم!، هذا كثير، كثير جدًا يا أبا عبد الله!.

-لا ليس كثيرًا، بعنيها، وبارك الله لك في مالك.

-بعتك يا أبا عبد الله.

نعم، ليس كل الناس يستطيع فعل ما فعله عثمان، فالناس عادة يشترون ليربحوا أو يتنعموا، وأما عثمان فكان يرجو ربحًا أعظم ونعيمًا أكبر.

-أتجعل لي فيها يا رسول الله ما جعلت للغفاري؛ عينًا في الجنة؟

-نعم.

-قد جعلتها للمسلمين يا رسول الله.

وذهب الغفاري بالدراهم، وذهب عثمان بعين في الجنة.

****

وشاء الله تعالى أن يبتلي عبده عثمان ،وقد استقر في قلوب المسلمين أن الله إذا أحب عبدًا ابتلاه، وما للعبد عند المصيبة إلا الصبر واحتساب الأجر، فإن الله لا يفعل شيئًا إلا لحكمة، ومن أشد المصائب موت الإبن.

فبعد أن بلغ عبد الله بن عثمان عامه الرابع، وصار من أجمل الصبيان، وأحب خلق الله إلى جده رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبيه وأمه من قبل، نقره ديك في عينه، فمرض على إثرها مرضًا شديدًا، وبقيت حالته تسوء حتى توفّي بين ذراعي خالته، وأمه الثانية أم كلثوم، وتحت أنظار أبيه.

حملوه من يومه إلى البقيع، وعثمان محتسب صابر رابط الجأش، ورسول الله معهم أربطهم جأشًا، ثم دلّوه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهيأه في قبره، ثم أهالوا عليه التراب.

(فصل)

وجدت محاولات سلام بن أبي الحقيق و حيي بن أخطب، أعتا زعماء اليهود من بني النضير وغيرهم لإغراء قبائل العرب بغزو النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه آذانًا صاغية.

لقد كانت غاية بني النضير الثأثر من المسلمين، بعد أن أجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من ديارهم، لغدرهم، وخيانتم ونقضهم العهد، فالتقت غايتهم مع غاية كفار قريش، وغيرهم من قبائل العرب، بعد هزائمهم المتتالية أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ومما زادهم غيظًا، رؤيتهم قوة المسلمين تتضاعف، إضافة لطمع بعض القبائل في خيرات المدينة، كغطفان وغيرها، فخرجوا جميعًا كلٌ من بلده، وتواعدوا على غزو

المدينة، فتجمعت جيوش الأحزاب؛ أربعة آلاف من قريش وأحلافها من كنانة، وستة آلاف من غطفان وأحلافها من بني سُليم وأسد.

ولما وصلوا مشارف المدينة علت وجوههم الدهشة، لمّا رأوا شيئًا لم يروه من قبل، ولم تعهده العرب في حربها؛ الخندق.

كان سلمان الفارسي هو الذي أشار على النبي صلى الله عليه وسلم بفكرة الخندق.

-يا رسول الله، إنا إذا كنا بأرض فارس وتخوفنا الخيل، خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن تخندق.

وكانت الأيام التي قضاها المسلمون في حفر الخندق على صعوبتها، حاملة لمعانٍ كثيرة، تعاضدت فيها السواعد، وتعاونت الأيادي، وبذل كلٌ وسعه، وأشدهم عزيمة نبيهم صلى الله عليه وسلم وهو يرتجز بكلمات عبد الله بن رواحة:

-والله لوا الله ما اهتدينا.......ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا......وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأعادي بغوا علينا..........وإن أرادوا فتنة أبينا

والصحابة يرددون:

-نحن الذين بايعوا محمدا....على الإسلام ما بقينا أبدا

فيجيبهم النبي صلى الله عليه وسلم:

-اللهم إن الخير خير الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة.

ودام الحصار أسابيع ثلاثة، حتى نجح بعض المشركين في اجتياز الخندق بخيولهم، يتقدمهم عمرو بن ود العامري أشجع فرسان العرب كما كان يُقال، صاح:

-من يابرز؟

فبرز له علي بن أبي طالب.

-يا عمرو، إنك كنت عاهدت الله، ألّا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين، إلّا أخذتها منه.

-أجل.

-فإني أدعوك إلى الله ورسوله وإلى الإسلام.

-لا حاجة لي بذلك.

-فإني أدعوك إلى النزال.

-لم يا أخي؟ فوالله ما أحب أن أقتلك.

-لكني والله أحب أن أقتلك.

فانفجر عمروٌ غاضبًا وهجم على علي، وما هما إلا ضربتان بالسيف، حتى أردى علي فارسَ العرب صريعًا في قلب الخندق، وكبّر المسلمون فرحًا، ورجع المجتازون من الخندق خائبين.

و مما زاد الأمر شدة على المسلمين ، علمهم بنقض بني قريظة للعهد وخيانتهم للمسلمين، وتعاقدهم مع المشركين على حرب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقد كان المسلمون قبل هذه الخيانة أمنوا أن يُأتوا من خلفهم، لكن الله تدراك نبيه والمسلمين بإسلام نُعيم بن أبي مسعود.

-يا رسول الله، إن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت.

-إنما أنت فينا رجل، فخذّل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة.

فذهب نعيم من فوره إلى بني قريظة وقال لهم:

-قد عرفتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم.

-صدقت.

-فإن قريشًا ليسوا مثلكم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشًا وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم ونساؤهم بغيره، فإن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلا لحقوا ببلادهم، وتركوكم ومحمدًا فانتقم منكم.

-فما العمل يا نعيم؟

-لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن.

-لقد أشرت بالرأي.

ثم مضى من فوره إلى قريش ومن معهم من الأحزاب فقال لهم:

-تعلمون ودي لكم ونصحي لكم.

-نعم.

-إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونهم إليهم، ثم يوالونه عليكم، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم.

وما هي إلا أيام حتى أرسلت الأحزاب إلى بني قريظة في يوم سبت:

-إنا لسنا بأرض مقام، وقد هلكت دوابنا ونفذت مؤونتنا، فانهضوا معنا حتى نناجز محمدًا.

-إن اليوم يوم سبت، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه، ومع هذا فإنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن.

فلما جاءت الرسل برد بني قريظة قال الأحزاب:

-صدقكم والله نعيم.

فبعثوا إليهم:

-إنا والله لا نرسل إليكم أحدًا، فاخرجوا معنا حتى نناجز محمدًا.

فقال بنو قريظة:

صدقكم والله نعيم.

ثم تخاذل الفريقان واختلفت قلوبهم، وأتي الله بنصره بجند من عنده؛ ريح شديدة قلبت قدور الأحزاب وخلعت خيامهم وأخمدت نارهم، فأكلهم البرد، واشتد بهم الكرب، فانصرفوا راجعين، مخلّين بين النبي صلى الله عليه وسلم وبني قريظة، فلم يضع النبي صلى الله عليه وسلم السلاح بأمر ربه له، فسار إليهم وحاصرهم، حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ، فحكم فيهم أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى النساء والذرية، وأن تقسم أموالهم، وكذا كان.

(فصل)

كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يتوقون إلى مكة، وإلى أداء عمرة فيها والطواف بالكعبة، وزاد ذلك رغبة في قلوبهم رؤيا رآها النبي صلى الله عليه وسلم أنه يدخل المسجد الحرام مع أصحابه، ورؤيا الأنبياء حق.

فخرج النبي صلى الله عليه وسلم في ألف وأربعمائة من أصحابه لا يريدون قتالًا، إنما يريدون العمرة فقط، وحملوا معهم سلاح الراكب فحسب، إلا أن قريشًا أنفت نفوسهم أن يدخل عليهم النبي صلى الله عليه وسلم الحرم، فاستعدوا لصده ورده عن البيت الحرام.

ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم ذلك شاور أصحابه، فأشار أبو بكر بالمضي وقتال من يقاتلهم، فاستمر النبي صلى الله عليه وسلم في المسير حتى إذا وصلوا موضعًا يدعى الحديبية، بركت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم القصواء، فقال الناس:

-خلأ القصواء.

-ما خلأت القصواء وما ذلك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل، والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها، يا عثمان!.

-لبيك يا رسول الله.

-انطلق إلى قريش، وأخبرهم أنا لم نأت لقتال، إنما جئنا عمّارًا، وادعهم إلى الإسلام.

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم عثمان، أن يأتي رجالًا مؤمنين ونساءً مؤمنات في مكة، ويبشرهم بالنصر، فانطلق عثمان إلى مكة، فلما دخلها ومرَّ على قريش وهم مجتمعون قالوا:

-إلى أين؟

-بعثني رسول الله إليكم يدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، تدخلون في دين الله كافة، فإن الله مظهرٌ نبيه ومعزٌ دينه.

-قد سمعنا ما تقول ولا كان هذا أبدًا، ولا دخلها علينا عنوة.

****

طال الانتظار وعثمان لم يعد بعد، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عن الذي جرى لصاحبه ، حتى وصلت أنباء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأن قريشًا قتلت عثمان، فغضب غضبًا شديدًا وقال:

-لا نبرح حتى نناجز القوم.

ودعا المسلمين إلى مبايعته على القتال وأن لا يفروا، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، بايع فيها ألف وأربعمائة من المسلمين أو يزيدون رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك، ثم وضع النبي كفّه اليمنى عن اليسرى وقال:

-هذه عن عثمان.

إلّا أن الذي كان، أن عثمان لم يُقتل كما أشيع، فما لبث عثمان أن رجع من عند قريش، وكان الذي حبسه عن المسلمين أن قريشًا قالت له:

-إن شئت أن تطوف بالبيت، فطف.

-ما كنت لأفعل، حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فعند ذلك احتبسوه عندهم ثلاثة أيام، أشيع فيها أنه قد قُتل. وكان نفر من المسلمين قالوا في غيبة عثمان:

-قد خَلُص عثمان إلى البيت، فطاف به دوننا.

-ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون.

-ما يمنعه يا رسول الله وقد خلص إليه.

-ذلك ظني به أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف، لو مكث كذا سنة ما طاف حتى أطوف. فلما رجع عثمان قالوا له:

-أطفت بالبيت يا عثمان؟

-بئسما ظننتم بي، دعتني قريش إلى أن أطوف بالبيت فأبيت، والذي نفسي بيده لو مكثت بها سنة ورسول الله مقيم بالحديبية، ما طفت حتى يطوف رسول الله.

****

لما علمت قريش بأمر مبايعة النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على القتال، أشار أهل الرأي منهم بالصلح، وأرسلت قريش عروة بن مسعود الثقفي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يفاوضه، ويثنيه عن دخول مكة.

-يا محمد!، إني تركت قومك؛ كعب بن لؤي وعامر بن لؤي على أعداد مياه الحديبية، معهم الإبل، قد استنفروا لك أحابيشهم ومن طاوعهم، وهم يقسمون بالله لا يخلون بينك وبين البيت حتى تجتاحهم، وإنما أنت من قتالهم بين أمرين؛أن تجتاح قومك، ولم نسمع برجل اجتاح أصله قبلك، أو بين أن يخذلك من نرى معك، فإني لا أرى معك إلا أوباشًا من الناس، لا أعرف وجوههم ولا أنسابهم، فرد عليه أبو بكر ردًا شديدًا ثم قال له:

-أنحن نفر عنه!

فهال عروة رد أبي بكر، وما رأى من حال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومعاملتهم نبيهم وتوقيرهم له، فلما رجع إلى قريش قال لهم:

-يا قوم، إني وفدت على الملوك؛ على كسرى وهرقل والنجاشي، وإني والله ما رأيت ملكًا أطوع فيمن هو بين ظهرانيهم من محمد في أصحابه، والله ما يشدّون إليه النظر، وما يرفعون عنده الصوت، وما يكفيه إلا أن يشير إلى الأمر فيُفعل، وما يتنخم وما يبصق إلا وقعت في يد رجل منهم يمسح بها جلده، وما يتوضأ إلا ازدحموا عليه أيهم يظفر منه بشيء، وقد حزرت القوم، واعلموا أنكم إن أردتم السيف بذلوه لكم، وقد رأيت قومًا ما يبالون ما يُصنع بهم إذا منعوا صاحبكم، فروا رأيكم، وإياكم واضجاع الرأي، وقد عرض عليكم خطة فمادّوه، يا قوم اقبلوا ما عرض فإني لكم ناصح، مع أني

أخاف ألا تنصروا عليه، رجلٌ أتى هذا البيت معظّمًا له، معه الهدي ينحره وينصرف.

ثم أرسلت قريش سهيل بن عمرو لعقد الصلح، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم مقبلًا قال:

-قد سهل أمركم، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل.

فتكلم سهيل طويلًا ثم اتفقوا على الصلح.

-اكتب بسم الله الرحمن الرحيم...

فقال سهيل معترضًا بعدما أملى النبي صلى الله عليه وسلم هذا على علي بن أبي طالب:

-أما الرحمن فما أدري ما هو، ولكن اكتب :باسمك اللهم، كما كنت تكتب.

فقال علي:

-والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

-اكتب، باسمك اللهم.

ثم أكمل ممليًا على علي:

-هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله...

فقاطع سهيل ثانية معترضًا:

-والله لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله.

-إني رسول الله وإن كذبتموني.

ثم أدار وجهه إلى علي وقال:

-اكتب:محمد بن عبد الله.

ثم أتموا كتابة الصلح وكان فيه: أن من أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم دخل فيه، وأن تتوقف الحرب عشر سنين، وأن يعود المسلمون هذا العام وأن يدخلوا مكة معتمرين العام القادم، وأن يُرجع المسلمون من يأتيهم من قريش مسلمًا دون إذن وليّه، وألا تردَّ قريش من يعود إليها من المسلمين. ودخلت قبيلة خزاعة في حلف النبي صلى الله عليه وسلم، ودخلت بنو بكر في حلف قريش.

****

وفي اليوم العاشر من رمضان لثماني سنين من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، وبعد سنتين من الصلح الذي كان في الحديبية، دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فاتحًا في عشرة آلاف مقاتل، بعد أن أعانت قريش حلفاءها بني بكر على حلفاء المسلمين خزاعة وأمدوهم بالسلاح، فأغاروا عليهم وقتلوهم عند ماء يسمى الوتير.

لما نزل النبي صلى الله عليه وسلم مكة واطمأن الناس، جاء الكعبة فطاف بها، وجعل يطعن الأصنام بقوس في يده، فتنكبُّ على وجهها تتحطم وهو يتلو:

-"جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا"،"جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد"

ثم لما حان وقت الصلاة، أمر بلالًا فصعد الكعبة، ونادى بأعلى صوته بالأذان، وابتلت لحى المسلمين بدموعهم، فرحًا بما منَّ الله عليهم من النصر والتمكين، وكان عثمان من أشدهم فرحًا بما من الله به وتفضّل، لكن كان يشغله أمر عظيم؛ أمر أخيه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أهدر دمه، مع سبعة رجال، وثلاث نسوة، كانوا قد بالغوا في أذى النبي صلى الله عليه وسلم، وعبد الله بن سعد هذا، كان قد أسلم قبل الحديبية، وهاجر إلى المدينة وحسن إسلامه، وجعله النبي صلى الله عليه وسلم يكتب الوحي له، ثم إن الشيطان استزلَّ عبد الله، فارتد ولحق بالكفار وصار يحدّث أن النبي صلى الله عليه وسلم يفتري القرآن من عنده، فمن أجل ذلك أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمه ولو وُجد متعلقًا بأستار الكعبة، وعثمان يرى في عيني أخيه الندم والحسرة على ما فعل، وأخوف ما كان يتخوفه عليه، أن يُقتل على كفره فيدخل النار.

-قم معي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو يبايع على الإسلام.

-كيف وقد فعلتُ ما فعلت!؟ إني أخشى أن أُقتل.

-لن يصيبك إلا ما كتب الله عليك، قم معي، فلعل الله يحدث أمرًا.

وبينما النبي صلى الله عليه وسلم يبايع الناس، وقف عثمان أمام النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أخوه عبد الله مطأطأً رأسه، فقال عثمان لرسول الله بنبرة الرجاء:

-يا نبي الله، بايع عبد الله.

لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم سكت ولم يجب طلب عثمان، فأعاد عثمان ثانية:

-يا نبي الله بايع عبد الله.

فلم يجبه النبي صلى الله عليه وسلم كذلك.

-يا نبي الله بايع عبد الله.

وبعد تكرار عثمان طلبه ثلاث مرات، بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله على الإسلام، ثم انصرف عثمان بأخيه فرحًا، فقال رسول الله بعد انصرافهم لأصحابه:

-أما كان فيكم رجل رشيد، يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته، فيقتله.

-ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأت بعينك!؟.

-إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين.

وسبق في علم الله تعالى أن عبد الله هذا لا يموت على الشرك، وأن إسلامه سيحسن جدًا، وأنه سيكون من المجاهدين الفاتحين.

****

بعد مضي أقل من شهر على فتح مكة، جاءت الأنباء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، بأن هوازن وثقيف ومن حالفهم، قد تجمعوا لقتال المسلمين، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في اثني عشر ألف مقاتل، والتقى بهم في وادٍ يُقال له حُنين. ولأن بعض المسلمين قال يومها ناسيًا أن الله هو الذي ينصر عباده ولا نصر بدونه:

-لن نُهزم اليوم من قلة.

ولأن هوازن كانوا قومًا رماة، ولمفاجأتهم المسلمين بالنبل من كل صوب، صار المسلمون في حيص بيص، وأذهلتهم الصدمة، فبدأ التقهقر وفرّ الناس، ولم يثبت مع النبي صلى الله عليه وسلم إلّا قلة من أصحابه وجعل ينادي:

-إليَّ عباد الله ، أنا رسول الله.

فكان أول من أجابه العباس عمّه، ففرح النبي صلى الله عليه وسلم به، لأن صوته كان جهوريًا، فقال له:

-ناد عليهم يا عباس.

-ماذا أقول؟

-قل: يا أصحاب بدر، يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب البيعة.

فجعل العباس ينادي:

-يا أصحاب بدر، يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب البيعة يوم الحديبية، الله الله، الكرة على نبيكم يا أصحاب السمرة.

ثم أمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يخص الأنصار، فجعل ينادي:

-يا أنصار الله، يا أنصار رسوله.

ثم أمره أن يخص الخزرج، فجعل ينادي:

-يا بني الخزرج، يا بني الخزرج.

فعادوا مسرعين وهم يصيحون:

-يا لبيك، يا لبيك.

فتجمع حول النبي صلى الله عليه وسلم مائة من أصحابه، فنظر إليهم وقال:

-حمي الوطيس.

ونزل عن فرسه، وركب بغلته، وركضها تجاه المشركين وهو يقول:

-أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب.

وأمسك حفنة من تراب، وقذفها في وجوه المشركين وهو يقول:

-شاهت الوجوه، اللهم نصرك الذي وعدت.

فما بقي أحد من المشركين، إلّا دخل التراب في عينيه وفمه، واشتد القتال، ثم ما هي إلّا ساعة حتى ولّوا منهزمين، وانطلقت فلولهم إلى الطائف، وتحصنوا بها يرأسهم مالك بن عوف النصري، فسار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصرهم، فرماهم المتحصنون رميًا شديدًا، حتى أنهم قتلوا اثني عشر رجلًا من المسلمين، وبعد أربعين يومًا تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وفك الحصار عنهم.

****

وبعد مضي ستة شهور على حصار الطائف، وفي العام التاسع للهجرة، علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الروم قد جمعوا جيشًا عظيمًا لقتال المسلمين، ولم يكن بد من الخروج لقتالهم وجهادهم، غير أن الظرف كان صعبًا وقتها، فقد أجدبت الأرض، وشح الماء واشتد الحر، ولأن تجهيز جيش كبير لمواجهتهم يحتاج مالًا كثيرًا، شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم يحث الناس على النفقة في سبيل الله، ووقف في الناس عقب الصلاة فحث ورغّب، فقال عثمان:

-يا رسول الله!، عليَّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله.

فسُر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم حضَّ الناس، فقام عثمان مرة أخرى فقال:

-يا رسول الله علي ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها.

فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنبر وهو يقول:

-ما على عثمان ما عمل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه.

ثم جاء عثمان إلى النبي صلى الله عليه وسلم بألف دينار في ثوبه، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقلبها بيده ويقول:

-ما ضرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم، ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم، ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم.

وأسرع المسلمون إلى الإنفاق في سبيل الله؛ أبو بكر، وعمر، والعباس، وطلحة بن عبيد الله، ومحمد بن مسلمة، وعاصم بن عدي و عبد الرحمن بن عوف .

ولما اكتمل تجهيز الجيش، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاثين ألف مقاتل، يكابدون القيظ والجهد، فلما بلغوا تبوك، فرَّ الروم هاربين، وآثروا السلامة على المواجهة، وخضعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم دومة الجندل، وأيلة، وكتب لهم كتابًا يذكر فيه ما لهم وما عليهم.

(فصل)

لقد كان عثمان كغيره من الصحابة يعرفون هذه الآيات ويتلونها ويقرؤونها في صلاتهم ومصاحفهم، "إنك ميت وإنهم ميتون"، " وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم"، "وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفأين مت فهم الخالدون".لكن لم يكن أحد منهم قد تصوّر هذا الشيء أو تخيّل حدوثه؛ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

مع أن عثمان قد جرّب ألم الفقد مرارًا، فقد فقد ابنه عبد الله و زوجتيه بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم رقية من قبل، وأم كلثوم التي توفّيت قبل سنتين، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موتها بأيام:

-لو كان عندنا ثالثة لزوجناكها يا عثمان.

لكن ألم فقد النبي صلى الله عليه وسلم ليس كألم فقد أي أحد من الناس.

. كان ابتداء مرضه صلى الله عليه وسلم، لما كان راجعًا يومًا من دفن أحد أصحابه، فقالت عائشة زوجه:

-وا رأساه!.

فقال:

-بل أنا وا رأساه.

وفي ليلة ذلك اليوم، أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى مولاه أبي مويهبة، فلما حضر عنده قال:

-يا أبا مويهبة، إني قد أُمرت أن أستغفر لأهل البقيع، فانطلق معي.

فانطلق معه حتى وصلا البقيع، ولما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على القبور قال:

-السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح فيه الناس، لو تعلمون ما نجّاكم الله منه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع أولها آخرها، الأخرةُ أشدُّ من الأولى.

ثم أقبل على أبي مويهبة فقال له:

-يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا، والخلد فيها ثم الجنة، وخيّرت بين ذلك وبين لقاء ربي عز وجل والجنة.

-بأبي وأمي أنت، فخذ مفاتيح الدنيا والخلد فيها ثم الجنة.

-لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي عز وجل والجنة.

كان ذلك في شهر ربيع الأول في السنة الحادية عشر للهجرة، إذ ثقل به بعدها صلى الله عليه وسلم المرض، فاستأذن أزواجه أن يمرّض في بيت أم المؤمنين عائشة، وسكبوا عليه سبع قرب من ماء يومها، علّها تخفف عنه بعض الذي يجده، ولأنه أراد أن يخرج إلى الناس فيوصيهم. فخرج إليهم عاصبًا رأسه بخرقة، فجلس على المنبر وقال:

-إنه ليس من الناس أحد أمنُّ علي في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنت متخذًا من الناس خليلًا، لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن خلّةُ الإسلام أفضل، سدّوا عني كل خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر.

ولما حضرت الصلاة قال:

-مروا أبا بكر فليصل بالناس.

فقالت إحدى نسائه:

-إن أبا بكر رجل أسيف، إذا قام في مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس.

-فلما أكثروا جداله قال:

-مروا أبا بكر فليصل بالناس.

فخرج أبو بكر بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بالناس، ثم وجد النبي صلى الله عليه وسلم من نفسه خفة، فخرج يُهادى بين رجلين، ورجلاه تخطان الأرض، فلما رآه أبو بكر قادمًا، أراد أن يتأخر ليصلي النبي صلى الله عليه وسلم بالناس، فأومأ إليه أن يبقى مكانه، ثم أُتي به حتى جلس إلى

جنبه، فصلى أبو بكر بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم، وصلى الناس بصلاة أبي بكر.

ثم إنه صلى الله عليه وسلم بعدها تغيّب ثلاثة أيام لا يستطيع الخروج للصلاة، وأبو بكر في هذه الأيام الثلاثة يأم الناس، واستمر الوجع برسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد كثيرًا، حتى أن عبد الله بن مسعود دخل عليه فمسّ يده فقال:

-يا رسول الله! إنك توعك وعكًا شديدًا!.

-أجل، إني أوعك كما يوعك الرجلان منكم.

-ذلك أن لك أجرين؟.

-أجل، ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه، إلا حط الله به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها.

ومكث به صلى الله عليه وسلم الوجع ثلاثة عشر يومًا، حتى كان يوم الإثنين من نفس الشهر، والصحابة صفوف يصلون، إذ كشف النبي صلى الله عليه وسلم ستر الحجرة ينظر إليهم، ووجهه كأنه ورقة مصحف، ثم تبسّم يضحك، فهمَّ الناس أن يقطعوا صلاتهم فرحًا برؤيته، فنكص أبو بكر ليرجع إلى الصف الثاني، فأشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم أن أتموا صلاتكم، وأسدل الستر ودخل مخبأه، ثم دخل عبد الرحمن بن أبي بكر عليه، ورأسه صلى الله عليه وسلم مسندة على عائشة، فنظر إلى سواك في يد عبد الرحمن، فعرفت عائشة أنه يريده.

-آخذه لك؟.

فأشار برأسه أن نعم، فتناولته وليّنته له، وأعطته إياه، فجعل يستاك به، ويدخل يديه في ركوة فيها ماء، فيمسح بهما وجهه وهو يقول:

-لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات.

ثم نصب يده فجعل يقول:

-في الرفيق الأعلى.

ثم مالت يده.....

****

أظلمت المدينة من كل شيء، واضطرب المسلمون كل اضطراب لوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمنهم من دُهش فصار يتكلم بكلام لا يُفهم، ومنهم من لم تعد رجلاه تحملانه، ومنهم من انعقد لسانه، فما عاد يستطيع الكلام، ومنهم من أنكر موت رسول الله صلى الله عليه وسلم أصلًا.

-والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليبعثنه الله، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم.

وجاء أبو بكر مسرعًا، فدخل الحجرة التي فيها النبي صل الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب في الخارج يقول ما يقول.

-بأبي أنت وأمي، طبت حيًا وميتًا، والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبدًا.

قال ذلك أبو بكر بعد أن قبّل النبي صلى الله عليه وسلم بين عينيه، ثم خرج إلى الناس، وعمر ما زال يقول ما يقول.

-أيها الحالف على رسلك.

فسكت عمر.

-ألا من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت،" إنك ميت وإنهم ميتون"، "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله

الرسل أفإين مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا وسيجزي الله الشاكرين".

فضجَّ عمر بالبكاء، وضج الناس معه.

****

لم تكن وفاة النبي صلى الله عليه وسلم مصيبة فحسب، بل كانت أم المصائب، والصحابة جميعًا كبيرهم وصغيرهم قد فتت الحزن أكبادهم، لكن مصيبة عظيمة كهذه لا ينبغي أن تنسيهم أمرًا عظيمًا، بدون إبرامه ينفرط عقد المسلمين، وهو اختيار من يخلف النبي صلى الله عليه وسلم في أمته.

لقد كان هذا الأمر يشغل أولي الحزم والرأي من الصحابة، مهاجرين وأنصار، فالأنصار من الأوس والخزرج قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، وتداولوا الرأي فيما بينهم على من يبايعون خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم منهم، فاستقر أمرهم على سعد بن عبادة.

ولما علم المهاجرون بالخبر واجتماع الأنصار، انطلق إليهم أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة بن الجراح في نفر آخرين.

كان عمر بن الخطاب يعلم أن هذا الأمر لا ينفع فيه التنازع، ولا أن تنصّب كل جماعة من تشاء منها، فيحدث الاختلاف بين المسلمين، لذا لما وصلوا السقيفة وجدوا الأنصار متحلّقين حول سعد بن عبادة وهو مريض لا يقوى على الحراك.

-من هذا؟

-هذا سعد بن عبادة.

-ماله؟.

-يوعك.

وسكت عمر فقام خطيب الأنصار، فتشّهد، وحمد الله، وأثنى عليه ثم قال:

-أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط، وقد دفَّ عدد قليل منكم، فإذا هم يريدون أن يخرجونا من أمر الخلافة.

فهمَّ عمر أن يجيبه، إلّا أن أبا بكر قاطعه:

-على رسلك.

فكره عمر أن يغضب أبا بكر، ثم تابع أبو بكر قائلًا:

-ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يُعرف هذا الأمر إلأ لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسبًا ودارًا، وقد رضيت لكم هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم.

وأخذ بيد عمر وأبي عبيدة، فقام أحد الأنصار فقال:

-أنا لها ، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش.

فكثر اللغط وارتفعت الأصوات.

-يا معشر الأنصار!، ألستم تعلمون أن رسول الله قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس؟ فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟.

-نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر.

فقام الناس جميعًا مهاجرين وأنصار بعد ما قال عمر بن الخطاب هذا، فبايعوا أبا بكر بن أبي قحافة.

****

-أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط، إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.

كانت هذه كلمات أبي بكر من على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم خلافته الأول، وكان كما قال فعلًا وقولًا، حيث كان الأسد على براثنه في جميع أمره، وأهمها أمر ردة العرب، ومنع بعضهم الزكاة.

-والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقاتلتهم على منعها.

فأرسل الجيوش تلو الجيوش لقمع الردة؛ خالد بن الوليد لقتال بني أسد ثم بني تميم ثم بني حنيفة في اليمامة، وعكرمة بن أبي جهل إلى اليمامة أولًا، ثم إلى عُمان وحضرموت، وعمرو بن العاص إلى بني سليم وهوازن، وغيرهم من القادة، حتى قمع الله به الردة، ورجع كل أهل الجزيرة إلى الإسلام.

ثم لما فرغ من شأن الردة، بدأ بتوجيه الجيوش لفتح البلاد، وإدخال أهلها في الإسلام وهدايتهم، فكانت الفتوح العظيمة والانتصارات الكبيرة، كاليرموك وأجنادين وغيرها.

****

-رحمك الله يا أبا بكر، كنت إلف رسول الله وأنيسه ومستراحه وثقته، وموضع سره ومشاورته، والله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله بمثلك

أبَدا، كنت للدين عزّا وحرزًا وكهفًا، فألحقك الله عز وجل بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم، ولا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدك.

كانت هذه كلمات علي بن أبي طلب لما علم بوفاة أبي بكر، فقال الناس بعد أن أنهى كلامه:

-صدقت.

وقبلها بخمسة عشر يومًا، كان أبو بكر قد بدأ مرضه، بعد أن اغتسل في يوم بارد، فبدأت به الحمى، وكان عمر وعثمان ألزم الناس له في مرضه، وكان عثمان له ألزم. ولم يكن ما يقاسيه أبو بكر من آلام المرض ليشغله عن أمر المسلمين، فجمع الناس وقال بصوت ضعيف:

-إنه قد نزل بي ما قد ترون، ولا أظنني إلا ميتًا لما بي، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي، وحل عنكم عقدتي، وردَّ عليكم أمركم، فأمّروا عليكم أحبكم، فإنكم إن أمّرتم في حياة مني، أجدر أن تختلفوا بعدي.

-رأينا يا خليفة رسول الله رأيك.

-فأمهلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده.

ثم بعد مدة كتب كتابًا هذا ما جاء فيه:

-بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا، خارجا منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلا فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب، فاسمعوا له، وأطيعوا، وإني لم آل الله، ورسوله، ودينه، ونفسي، وإياكم خيرا، فإن عدل فذلك ظني به، وعلمي فيه، وإن بدّل فلكل امرئ ما اكتسب، والخير أردت، ولا أعلم الغيب (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.)

ثم أمر أهله فقال:

-انظروا ماذا زاد في مالي منذ دخلت الإمارة فابعثوا به إلى الخليفة بعدي.

فنظروا، فإذا كل ما كان عنده عبدٌ وبعير، فبعثوا بهما إلى عمر، فقال عمر لما رآه مستقرًا عنده:

-رحمة الله عليك يا أبا بكر، لقد أتعب من بعده تعبًا شديدًا.

وقد كان أبو بكر دعى عثمان في صبيحة هذا اليوم الذي كتب فيه الكتاب قبل أن يبرزه للناس.

-طلبتني يا خليفة رسول الله.

-نعم، اكتب يا عثمان ما أمليه عليك: هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين، أما بعد..... .

وأغمي على أبي بكر من شدة وجعه، فكتب عثمان:

-أما بعد، فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيرًا.

ثم أفاق أبو بكر.

-اقرأ عليّ.

فقرأ عثمان، فلما انتهى، قال أبو بكر:

-الله أكبر، أراك خفت أن يختلف الناس إذا مت في غشيتي.

-نعم.

-جزاك الله خيرًا عن الإسلام وأهله.

****

كان عمر بن الخطاب بحق خير خلف لخير سلف، قائمًا بحق الله، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولم يختلف عليه مسلمان اثنان. خطب أول يوم في خلافته فقال:

-اللهم إني شديد فليّنّي، وإني ضعيف فقوّني، وإنّي بخيل فسخّني.

ثم التفت إلى الناس فقال:

-إن الله ابتلاكم بى، وابتلانى بكم بعد صاحبى، فلا والله لا يحضرنى شىء من أمركم فيليه أحد دونى، ولا يتغيب عنى فآلو منه عن أهل الصدق والأمانة. ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم، ولئن أساءوا لأنكلن بهم. فما كان بحضرتنا باشرناه بأنفسنا، وما غاب عنا ولينا فيه أهل القوة والأمانة، فمن يحسن نزده، ومن يسئ نعاقبه، ويغفر الله لنا ولكم. أيها الناس، إن لكم عليَّ خصالًا أذكرها لكم فخذوني بها؛ لكم علي ألّا أجتبي شيئًا من خراجكم وما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم عليّ إن وقع في يدي ألّا يخرج إلا بحقه، ولكم عليّ أن أزيد في أعطياتكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى، ولكم عليّ ألأ ألقيكم في التهلكة، ولكم عليّ أن أسد ثغوركم إن شاء الله تعالى، ولكم عليّ إن غبتم في البعوث، فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم، فاتقوا الله وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحضار النصحية فيما ولّاني الله من أموركم.

وفي عهده رحمه الله فتحت البلدان، وتمكن الإسلام، وسارت بسيرة عدله وزهده الركبان. ومن ذلك أن عثمان في يوم شديد الحر، شديد السموم، مرَّ بحظيرة الصدقة، فرأى رجلًا عليه إزار ورداء، قد لفَّ رأسه برداء، يدخل الإبل الحظيرة، فاقترب عثمان ليرى من هذا الرجل، فإذا هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فقال:

-هذا والله القوي الأمين.

وكان عثمان من خاصة أصحاب أمير المؤمنين عمر، وكان وزيره وأحد مستشاريه إذا حزبه أمر، حتى أن الصحابة كانوا إذا أرادوا أن يسألوا عمر

شيئًا، جعلوا عثمان هو الذي يسأله. وكان عمر قد استشار أصحابه في عطائه من بيت مال المسلمين، فكان عثمان أو المشيرين عليه فقال:

-كل وأطعم.

وكان عثمان أيضًا هو الذي أشار عليه بأمر تدوين الدوواين وكتابة التاريخ، وذلك أن الدولة لما توسعت وكثرت الأموال، جمع عمر وجوه أصحابه ليستشيرهم في هذا المال، فقال عثمان:

-أرى مالًا كثيرًا يسع الناس، وإن لم يُحصوا حتى يُعرف من أخذ منهم ممن لم يأخذ، خشيت أن ينتشر الأمر.

فاستحسن عمر رأي عثمان، وانتهى بهم الرأي إلى تدوين الدوواين. وكذلك كان لعثمان أكبر الأثر في اعتماد عمر هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تأريخًا لهم، فقد كان أشار جمع من الصحابة منهم عثمان وعلي على عمر باعتماد الهجرة تأريخًا، وقال عثمان له يومها:

-أرّخوا من المحرّم أول اسنة، وهو شهر حرام وأول شهور العدة، وهو منصرف الناس من الحج.

فرضي عمر وجميع الصحابة رأي عثمان واستحسنوه.

(فصل)

تناقل الناس في آخر حجة حجها عمر بن الخطاب نبأ رجل مجهول صاح حتى أسمع عمر والناس:

-لن يقف عمر على جبل عرفة مرة أخرى.

وقلق البعض من هذا، وخافوا أن يكون مراد الصائح قتل الخليفة، لكن الجمع الأكبر من الناس لم يلقوا له بالًا، إذ لم يعلموا أن قومًا من الفرس ملأ الحقد قلوبهم على الإسلام والمسلمين، وعلى عمر بشكل أخص، فاتح بلادهم، وهادم ملكهم ومخمد نارهم، يتربصون ويحيكون الخطط للانتقام.

فبعد أيام يسيرة من انقضاء الحج، وعودة عمر إلى المدينة، خرج يصلي بالناس الفجر، فمر بين الصفوف يعدلها ويقول:

-استووا.

ثم تقدّم فكبّر تكبيرة الإحرام، ثم قرأ الفاتحة، ثم استفتح سورة يوسف، ثم لمّا هم بالتكبير للركوع سمعه المصلون يقول:

-قتلني الكلب.

****

كان فيروز والمكنى بأبي لؤلؤة المجوسي، مشمولًا بقرار عمر بمنع المشركين من السبايا، والموالي، والعبيد من دخول مدينة رسول الله صلى الله عليه سلم، لِما انطوت عليه قلوبهم من بغض الإسلام والمسلمين، لكن المغيرة بن شعبة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن عمر في السماح لأبي لؤلؤة بدخول المدينة، لينتفع الناس به لإتقانه صنائع عدة، كالحدادة، والنجارة، فوافق عمر.

وذات يوم شكى أبو لؤلؤة المغيرة إلى عمر، وادّعى عليه أنه يفرض عليه خراجًا كثيرًا، فلما سمع عمر حجة الطرفين، قضى ببطلان دعوى أبي لؤلؤة، فأضمر الخبيث من حينها قتل عمر.

لم يكتف أبو لؤلؤة بطعن عمر، بل طفق لا يمر على أحد من المسلمين يمينًا ويسارًا إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلًا، مات منهم سبعة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين ألقى عليه رداءه، ولما أيقن العلج أنه مقتول، نحر نفسه، وتقدم عبد الرحمن بن عوف فصلى بالناس صلاة خفيفة، وحُمل عمر إلى داره، ولما استقر في داره قال لعبد الله بن عباس:

-يا ابن عباس، انظر من قتلني؟.

فذهب ابن عباس فسأل ثم عاد.

-غلام المغيرة بن شعبة.

-الصُنَع؟.

-نعم.

قاتله الله، لقد أمرت به معروفًا، الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدّعي الإسلام.

ودُعي بالطبيب، فأتى عمر بلبن، فشربه فخرج من جرحه، فعلموا أنه ميت لا محالة. وازدحم الناس على باب عمر كلهم يثني عليه، ثم جاء ابنه عبد الله فقال له:

-انظر ما عليّ من دين، وانطلق إلى عائشة أم المؤمنين، فقل: يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل : أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين بأمير، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يُدفن مع صاحبيه.

فذهب عبد الله إلى أم المؤمنين عائشة، فأبلغها بما أوصاه به أبوه فقالت:

-كنت أريد هذا المكان لنفسي، ولأوثرنه به اليوم على نفسي.

وفاضت نفس عمر ووري التراب، وأصبح المسلمون الآن أمام أمر عظيم من أمور المسلمين، بل لعله أعظمها؛ اختيار خليفة للمسلمين يخلف عمر.

****

كان عمر في أيامه الأخيرة وهو يحتضر، قد أبعد ابنه عبد الله، بل حتى أي رجل من بني عديّ قومه من أمر الخلافة، ولخوفه على المسلمين أن يختلفوا بعده، اختار مجلس شورى ضم كبار رجال الصحابة وأعظمهم فضلًا؛ عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، عبد الرحمن بن عوف، الزبير بن العوّام، سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله، وأمرهم أن يجتمعوا في

بيت أحدهم ثلاثة أيام ويتشاوروا فيما بينهم، وأن يكون ابنه عبد الله معهم مشيرًا فحسب، وليس له من الأمر شيء، وأثناء ذلك يصلي بالناس صهيب الروميّ، لكي لا يصلي بالناس أحد من الرجال الستة أصحاب الشورى، فيكون ذلك ترشيحًا له للخلافة على حساب غيره وتفضيلًا له عليهم.

وأمر المقداد بن الأسود وأبا طلحة الأنصاري أن يرقبا الأمر، وقال لأبي طلحة:

-يا أبا طلحة، إن الله أعز الإسلام بكم، فاختر خمسين رجلًا من الأنصار، فاستحثَّ هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلًا منهم.

وقال للمقداد:

إذا وضعتموني في حفرتي، فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلًا منهم.

وبعد أن فرغ الناس من دفن عمر، ذهب الستة الذين عيّنهم عمر إلى بيت عائشة أم المؤمنين، وبدأت المشاورة بينهم.

-اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم.

هكذا أشار عليهم عبد الرحمن بن عوف، فاستحسنوا رأيه ووافقوا عليه، فأما الزبير فقال:

-جعلت أمري إلى علي.

وقال طلحة:

-جعلت أمري إلى عثمان.

وقال سعد:

-جعلت أمري إلى عبد الرحمن.

وهكذا صار أمر الخلافة يدور بين ثلاثة، بعد أن كان يدور بين ستة، ثم إن عبد الرحمن بن عوف، جعل الأمر بين علي وعثمان وأخرج نفسه من الأمر، واشترط عليهم فقال:

-أفتجعلونه إليّ، واللهُ على أن لا آلو من أفضلكما؟:

-نعم.

فشرع عبد الرحمن يشاور الناس في الطرقات والبيوت، حتى أنه شاور النساء في خدورهن، بل والصبيان والعبيد، وذهب إلى علي فقال له:

-إن لم أبايعك فأشر عليّ، فمن ترشّح للخلافة؟

-عثمان بن عفان.

وذهب إلى عثمان فقال له:

-إن لم أبايعك فمن ترشّح للخلافة؟

-علي بن أبي طالب.

واستمر عبد الرحمن طيلة الأيام الثلاثة، التي وقّتها لهم عمر لا يذوق نومًا، ولا يكاد يأكل، حتى استفرغ وسعه في اختيار الأصلح للإسلام والمسلمين.

وفي صبيحة اليوم الثالث بعد صلاة الصبح، اجتمع الستة أصحاب الشورى، وأمراء الأجناد والمهاجرون والأنصار، حتى اكتمل الجمع، فوقف عبد الرحمن بن عوف فتشهّد وحمد الله ثم قال:

أما بعد، يا علي إن نظرت في أمر الناس، فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعلن على نفسك سبيلًا.

ثم التفت إلى عثمان وقال:

-أبايعك على سنة الله ورسوله والخليفتين من بعده.

وبايع عثمان المهاجرون والأنصارو أمراء الأجناد وكل الناس، وكان على رأس المبايعين علي بن أبي طالب.

وهكذا اختير عثمان خليفة للمسلمين على رضا من الجميع، وكره منه لعلمه بثقل الأمانة.

****

أثبت عثمان أنه الرجل الأصلح، ولم يخيّب رجاء المسلمين الذين اختاروه ليكون خليفة عليهم. وفي أول أمر خلافته لم يغيّر من سياسات عمر بن الخطاب المالية شيئًا، وأقرَّ الولاة الذين كان عيّنهم عمر، ثم بعد مضي عام من خلافته، أخذ في استبدال بعض الولاة حسب ما تقتضيه المصلحة وبعد مشاورة الصحابة، فكان من ولاته الجدد خالد بن العاص المخزومي على مكة، وعثمان بن أبي العاص الثقفي على البحرين واليمامة، وسعد بن أبي وقاص الزهري على الكوفة.

واهتم بأمر القضاء، وجعل عليه علي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت والسائب بن يزيد، والناس في خلافته في أتم أمن وأحسن حال.

وكان عثمان الشيخ ذو الثمانية والستين عامًا، لا يشغله شاغل عن مصلحة الإسلام والمسلمين، ويدقق في كبير الأمور وصغيرها، ويتصرّف بما آتاه الله من حكمة ومع مشاورة أصحابه في الأمور العظيمة، ومن ذلك، أن حذيفة بن اليمان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان في جيش من جيوش أهل الشام يفتح بلاد أرمينية وأذرابيجان، أتى المدينة فقال لعثمان:

-يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى.

وكان سبب هذا الاختلاف، أن حذيفة وجد كل فئة من المسلمين في تلك البلاد، يقرؤون القرآن بحرف على غير الحرف الذي تقرأ به فئة أخرى، فيتسارع جهالهم إلى إنكار ما يقرأ به الآخر، ظنًا منه أنه يقرأ على خلاف ما كان يقرأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يعلموا أن النبي صلى الله عليه وسلم أذن له ربه أن يقرأ القرآن على سبعة أحرف، تخفيفًا على الناس، وأنها كلها كافية شافية.

فأرسل عثمان من فوره إلى أم المؤمنين حفصة:

-أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك.

وكان هذا المصحف الذي عند أم المؤمنين حفصة، عند أبيها عمر بن الخطاب من قبل، ومن قبل عند أبي بكر بعد أن جمع القرآن، وفيه العرضة الأخيرة، وذلك أن جبريل عليه السلام كان يعارض النبي صلى الله عليه وسلم القرآن كل سنة مرة، فلما كان عام وفاته صلى الله عليه وسلم، عارضه القرآن مرتين.

ولما وصلت الصحف إلى عثمان، جمع الصحابة يشاورهم:

-ما تقولون في هذه القراءة؟، قد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد أن يكون كفرًا.

-فما ترى؟

-أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة ولا اختلاف.

-فنِعم ما رأيت.

ولما استقر الأمر على هذا الرأي، أرسل عثمان إلى زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، ثم قام في الناس خطيبًا فقال:

-أيها الناس، عهدكم بنبيكم منذ ثلاث عشرة سنة وأنتم تمترون في القرآن!، وتقولون قراءة أُبيّ، وقراءة عبد الله!، يقول الرجل لأخيه ما تقيم قراءتك. فأعزم على كل رجل منكم، ما كان معه من كتاب الله شيء إلا جاء به.

فامتثل المسلمون لأمر خليفتهم، وجاء كل من يملك رقعة عليها من كتاب الله شيء، فأمر عثمان بحرقها جميعًا، وأمر النفر الذين اختاراهم لنسخ المصحف الإمام وقال لهم:

-إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم.

ولما فرغوا، أمر بأن ينفذ بنسخ المصاحف إلى أقطار بلاد الإسلام، فوجّه إلى الكوفة إحداها، وإلى البصرة أخرى، وإلى الشام أخرى وهكذا.

والصحابة يقولون فيما بينهم:

-أحسن والله عثمان، أحسن والله عثمان.

****

رأى عثمان أن يحذو حذو عمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق، في حرصهما على فتح البلاد ونشر الإسلام، فبعث بالجيوش في شتى البقاع، عليها خيرة القادة، ففتحت في عهده أرمينية، وخراسان، وكرمان، وسجستان وقبرص، وغزا الناس في عهده في البحر لأول مرة، وكان ذلك عن مشورة معاوية بن أبي سفيان، وقد كان معاوية من قبل استأذن عمر في أن يغزو في البحر، وألح عليه في ذك، إلّا أن عمر تريث في الأمر، وكتب إلى عمر بن العاص يستشيره فأجابه:

-إني رأيت خلقًا كبيرًا يركبه خلق صغير، إن ركن خرق القلب، وإن تحرّك أزاغ القلوب، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة، هم كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق.

فلما قرأ عمر رد عمرو، كتب إلى معاوية:

-لا والذي بعث محمدًا بالحق، لا أحمل فيه مسلمًا أبدًا، وتالله لمسلمٌ أحبُّ إليّ مما حوت الروم، فإياك أن تعرض عليّ.

إلأ أن معاوية لم ييأس، فعاود طرح الأمر على عثمان لما ولي الخلافة، فكتب له عثمان:

-إني شهدت ما ردَّ عليك عمر حين استأذنته في غزو البحر.

فعاود معاوية الكتابة له في الأمر، يرغّبه في أن يركب بالمسلمين لغزو قبرص، ففكر عثمان كثيرًا في الأمر وشاور أصحابه، ثم شرح الله صدره للأمر، فأذن لمعاوية لكنه اشترط عليه قائلًا:

-لا تنتخب الناس، ولا تقرع بينهم، خيّرهم، فمن اختار الغزو طائعًا فاحمله وأعنه.

ولما وصل الكتاب إلى معاوية، كتب من فوره إلى أهل السواحل يأمرهم بإصلاح المراكب وإعداد العدة، وكانت غزوة قبرص، وفتح الله على المسلمين المدينة.

****

ومنَّ الله تعالى على المسلمين في عهد عثمان بالأمن والأمان، وعاش الناس في رغد من العيش، واشتغلوا في التجارة، والزراعة والصناعة، إضافة إلى ما أفاء الله على المسلمين من غنائم عقب الفتوحات، فطاب عيشهم وكثرت أموالهم، وكانوا على كثرتها يأدون زكاة أموالهم إذا حال عليها الحول وبلغت النصاب، كما افترض الله عليهم.

وكان أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم من خير الناس، دينا، وخلقًا، وزهدًا وعبادة، وهو من السابقين الأولين للإسلام، حتى قيل أنه كان رابع أو خامس من دخل في الإسلام.

وبعد أن أسلم، أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم لدعوة قومه، فأجاب نصفهم، ثم بعد سنين قليلة، وفدوا جميعًا على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمين. ولم يتخلّف أبو ذر عن غزوة غزاها النبي صلى الله عليه وسلم بعد أُحد، وكان في مقامه في المدينة، يتفرّغ لخدمة النبي صلى الله عليه وسلم.

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم شارك أبو ذر في فتوح الشام، وشهد فتح بيت المقدس زمن عمر بن الخطاب، ثم أقام في الشام يفتي الناس، ويعلمهم أمور دينهم، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وكان يكثر الإنكار على المسلمين -والصحابة متوافرون- ادخارهم المال، حتى بعد دفعهم حق الله فيه للفقراء والمساكين، وكان يرى أن المسلم يجب عليه أن يتقلل من الدنيا، ولا يدخر من متاعها شيئًا ألبتة، وكان يتأوّل قول الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إن كثيرًا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم".وكثر إنكاره على المسلمين، حتى أنه أنكر على معاوية أمير الشام، فقرأ الآية في مجلسه يومًا ثم سأل معاوية:

-فيمن نزلت؟

-في أهل الكتاب.

-نزلت فينا وفيهم.

فكتب معاوية يشكوه إلى عثمان، فاستدعى عثمان أبا ذر ليقدم عليه و يكون في جواره، فامتثل أبو ذر لأمر عثمان وقدم المدينة، فقال له عثمان لمّا التقاه:

-إنّا أرسلنا إليك لخير، لتجاورنا في المدينة.

لكنه بعدها استمر في إنكاره، فأنكر على أهل المدينة ما كان ينكره على أهل الشام، فحاوره الناس وحاجوه، وبيّنوا له أن رأيه فيه شيء من الحق، لكنه ليس كل الحق.

وبعد أن أكثر الناس على أبي ذر وأكثر عليهم، ذكروا ذلك لعثمان، فراجعه عثمان في ذلك، فاستأذنه أبو ذر أن يقيم في الربذة على أطراف المدينة، ثم أقام زمانًا فيها حتى توفّاه الله، فضم عثمان عياله إلى عياله وتكفّل بهم.

(فصل)

كان عبد الله بن سبأ والملقب بابن السوداء، يهوديًا من صنعاء اليمن، ادّعى الإسلام زمن خلافة عثمان، ثم بدأ يجوب الأمصار يبثُّ في ضعاف النفوس أباطيل اخترعها من قبل نفسه، حيث ادّعى بادئ الأمر حبه لآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، حتى إذا راج أمره، واشتهر بين الناس بذلك، أظهر ما في نفسه من خبث فصار يقول:

-لعجبٌ ممن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذّب بأن محمدًا يرجع، وقد قال الله:" إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد"، محمد أحق بالرجوع من عيسى.

فلقي قوله هذا قبولًا عند من في قلبه مرض، ثم ارتقى في الباطل إلى القول بأنه كان ألفُ نبي، ولكل نبي وصيّ، وكان علي بن أبي طالب وصيَّ محمد صلى الله عليه وسلم، ومحمد خاتم النبيين وعليٌ خاتم الأوصياء، وعليه فقد ادّعى أن عليًا سُلب الخلافة، سلبها منه أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ولما كثر أتباعه والتف حوله من هم على شاكلته، أظهر قصده من كل ما كان يدّعيه ويكذبه فقال:

-من اظلم ممن لم يجر وصية رسول الله، ووثب على وصي رسول الله وتناول أمر الأمة.

يطعن بقوله هذا في جميع الصحابة مهاجرين وأنصار، بل في عليٍ نفسه، لأنهم بايعوا أبا بكر، ومن بعده عمر، ومن بعده عثمان، وينسبهم جميعًا للضلال، ثم قال لأتباعه:

-إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصيّ رسول الله فانهضوا في هذا الأمر، فحرّكوه، وابدأووا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر.

ومن مستقره في مصر، بعدما جاب أمصار المسلمين؛ الحجاز والبصرة والكوفة والشام، انتشرت أقاويله وفتنته في الأمصار، ونفّذ من تبعه من الغاوين أمره في إثارة الفتنة، فصاروا يشغّبون وينكرون على ولاتهم كل شيء مهما صغر، بحق وبغير حق، حتى تناهى إلى مسامع عثمان أمرهم فقال:

-والله إن رحى الفتنة دائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحرّكها.

****

كان هؤلاء الغوغاء المنتشرون في الأمصار؛ الكوفة والبصرة وغيرها، يتناقلون أكاذيب افتروها على عثمان ويبثونها بين الناس، يريدون بها التأليب عليه وتحريض الناس، فكان مما يدّعون؛ أن عثمان يعطي أقاربه من بني أميّة من بيت مال المسلمين ويمنع الناس، وكان عثمان يجيب عن فريتهم هذا فيقول:

-إني أحب أهل بيتي وأعطيهم، فأما حبي لهم، فإنه لم يمل معهم إلى جور، بل أحمل الحقوق عليهم، وأما إعطاؤهم، فإني إنما أعطيهم من مالي، ولا أستحل من أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس، وقد كنت أعطي

العطية الكبيرة الرعيّة من صلب مالي، أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر.

وكان مما يدّعيه الغوغاء أيضًا، أن عثمان يولّي أقاربه من بني أمية على حساب غيرهم من المسلمين، وكان جواب ذلك حاضرًا لدى خاصة المسلمين وعامتهم، فعثمان ولّى من أصل ستة وعشرين واليًا على مختلف الأمصار، خمسة من أقاربه فقط، وحتى هؤلاء الخمسة لم يكونوا ولاةً جميعًا في وقت واحد.

وكان الغوغاء يكثرون اللغط في قضية أبي ذر، وادّعوا أن عثمان أهانه ونفاه، وأبو ذر نفسه لو كان بقي حيًا، لكان أول مكذّب لهم وراد عليهم.

وكما أن الرخاء ووفرة المال نعمة من نعم الله تعالى على الناس، إلاّ أن بعض الناس تطغيهم هذه النعم، وبعد إنعام الله عليهم يبطرون، ويتنافسون على الدنيا، ويحاولون إحياء نعرة الجاهلية بعد أن أماتها الله بالإسلام، يريدون بإحيائها التوصل إلى أغراضهم ومطامعهم، إضافة إلى أناس غوغاء هنا وهناك، ونزّاع قبائل، وسفهاء أراذل، كل هؤلاء كان ابتداء أمر جهرهم بالفتنة وتحوّل قولهم إلى فعل، لمّا شغّبوا على والي الكوفة من قِبل عثمان سعيد بن العاص، لمّا أثاروا فتنة في الكوفة، وأخذوا ينشرون الشائعات، ويذيعون الافتراءات على سعيد وعثمان أمير المؤمنين، كما خطط لهم ابن سبأ.

ولمّا علم عثمان بأمرهم، أمر سعيدًا بأن يضيق على الفتنة ما استطاع، إلّا أن الناس ضجروا من هؤلاء المشغّبين أرباب الفتنة؛ الأشتر النخعيّ، وجندب الأزديّ، وابن الكوّاء، وصعصعة بن صوحان وغيرهم، فطلبوا من واليهم سعيد أن يعاقبهم، إلّا أنه امتثل أمر أمير المؤمنين فأجاب:

-إن عثمان نهاني عن ذلك، فإذا أردتم ذلك فأخبروه.

وعليه فقد كتب أهل الكوفة إلى عثمان يشكون له أمر هؤلاء النفر من المفسدين، ويطلبون منه أن يخرجهم من بلدهم، فكتب عثمان إلى سعيد بأن يخرجهم من الكوفة، ويرسلهم إلى معاوية في الشام، وكتب إلى معاوية:

-إن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفرًا خلقوا للفتنة فَرُعهُم، وأخفهم، وأدبهم، وأقم عليهم، فإن آنست منهم رشدًا، فاقبل منهم.

وفور وصلوهم إلى الشام، نفّذ فيهم معاوية أمر عثمان، فجعلهم لا يفارقونه، وصار يتغدّى ويتشعى معهم، وأجرى عليهم من النفقة، مثل ما كان يُجرى عليهم في الكوفة، وقال لهم يومًا:

-إنكم قوم من العرب لكم أسنان وألسنة، وقد أدركتم بالإسلام شرفًا، وغلبتم الأمم، وحويتم مراتبهم ومواريثهم، وقد بلغني أنكم نقمتم قريشًا، وإن قريشًا لو لم تكن، لعدتم أذلة كما كنتم.

وأراد معاوية من هذا الكلام أن يتألفهم، لأنه يعلم أنهم ما حركتهم إلّا العصبية ، وحسد قريش على ما خصها الله به من النبوة والخلافة، وكان مما قاله لهم أيضًا:

-إن أئمتكم اليوم لكم جنة، فلا تشذّوا عن جنتكم، وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الحور، ويحتملون منكم المؤونة، والله لتنتهنّ أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم، ثم لا يحمدكم على الصبر.

فقال صعصعة بن صوحان أحدهم:

-أما ما ذكرت من قريش، فإنها لم تكن أكثر العرب، ولا أمنعها في الجاهلية فتخوّفنا.

فقال معاوية:

-عرفتكم الآن، وعلمت أن الذي أغراكم على هذا، قلة العقول، وأنت خطيب القوم، ولا أرى لك عقلًا، أعظّم عليك أمر الإسلام وأذكّرك به، وتذكّرني بالجاهلية!؟، افقهوا ولا أظنكم تفقهون، إن قريشًا لم تعز في جاهلية ولا في إسلام إلا بالله عز وجل، لم تكن أكثر العرب ولا أشدهم، ولكنهم كانوا أكرمهم

أحسابًا، وأمحضهم أنسابًا، وأعظمهم أخطارًا وأكملهم مروءة، ولم يمتنعوا في الجاهلية والناس يأكل بعضهم بعضًا إلا بالله الذي لا يستذل من أعز، ولا يوضع من رفع، هل تعرفون عربًا أو عجمًا أو أسود أو أحمر إلا قد أصابه الدهر في بلده، إلا ما كان من قريش، فإنه لم يردهم أحد بكيد إلا جعل الله خده الأسفل، حتى أراد الله أن ينقذ من أكرم، فارتضى لذلك خير خلقه، ثم ارتضى له أصحابًا، وجعل هذه الخلافة فيهم، ولا يصلح ذلك إلى عليهم، فكان الله يحوطهم وهم على دينه، وقد أحاطهم في الجاهلية، حتى إذا أبرزك الإسلام، وحملك على الأمم التي كانت عليك، أقبلت تبغي دين الله عوجًا، إن الشيطان عنكم غير غافل، قد عرفكم بالشر من بين أمتكم، فأغرى الناس، وهو صارعكم، لقد علم أنه لا يستطيع أن يرد بكم قضاء الله، ولا أمرًا أراده الله، ولا تدركون بالشر أمرًا إلا فتح الله عليكم شرًا منه وأخزى.

ثم تركهم لعلهم يعقلون، أو يتوبون أو يراجعوا أنفسهم، إلّا أنهم تذامروا ولم يعجبهم ما قال. ثم لما كان اليوم التالي، أتاهم معاوية فقال لرئيسهم صعصعة:

-أيها القوم!، ردّوا عليّ خيرًا، أو اسكتوا، وتفكّروا، وانظروا فيما ينفعكم، وينفع أهليكم، وينفع عشائركم، وينفع جماعة المسلمين، فاطلبوه تعيشوا، ونعش بكم.

-لست بأهل ذلك، ولا كرامة لك أن تطاع في معصية.

-أوليس ما ابتدأتكم به أن أمرتكم بتقوى الله وطاعته وطاعة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرّقوا!؟

-بل أمرت بالفرقة، وخلاف ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم.

فتنهّد معاوية، وأطرق، ثم تمالك نفسه وقال:

-إني آمركم الآن، إن كنت فعلت، فأتوب إلى الله، وآمركم بتقواه، وطاعته، وطاعة نبيه صلى الله عليه وسلم ولزوم الجماعة، وكراهة الفرقة، وأن توقّروا أئمتكم، وتعظوهم في لين.

-فإنّا نأمرك أن تعتزل عملك، فإن من المسلمين من هو أحق منك.

-من هو!؟

-من كان أبوه أحسن قدمًا من أبيك، وهو نفسه أحسن قدمًا منك في الإسلام.

-والله إن لي في الإسلام لقدمًا، ولغيري كان أحسن قدمًا مني، ولكنه ليس في زماني أحد أقوى على ما أنا فيه مني، ولقد رأى ذلك عمر بن الخطاب، فلو كان غيري أقوى مني لم يكن لي عند عمر هوادة، ولا لغيري، ولم أحدث من الحدث ما ينبغي لي أن أعتزل عملي، ولو رأى ذلك أمير المؤمنين وجماعة المسلمين لكتب بخط يده، فاعتزلت عمله، ولعمري لو كانت الأمور تقضى على رأيكم وأمانيكم، ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يومًا ولا ليلة، لكن الله يقضيها ويدبرها وهو بالغ أمره، فعاودوا الخير وتولّوه.

-لست لذلك أهلًا.

-أما والله، إن لله لسطوات ونقمات، وإني خائف عليكم أن تتابعوا في مطاوعة الشيطان، حتى تحيلكم مطاوعة الشيطان ومعصية الرحمن دار الهوان، من نقم الله في عاجل الأمور والخزي الدائم في الآجل.

فوثبوا عليه وثبة رجل واحد، وأخذوا بلحيته ورأسه.

-مه!، إن هذه ليست بأرض الكوفة، والله لو رأى أهل الشام ما صنعتم بي وأنا إمامهم، ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم، فلعمري إن صنيعكم ليشبه بعضه بعضًا.

وقام عنهم، وعلم أنه لا نفع معهم أبدًا.

****

كتب معاوية إلى أمير المؤمنين عثمان، بالذي كان بينه وبين هؤلاء القوم شارحًا الحال:

-بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان، أما بعد يا أمير المؤمنين، فإنك بعثت إليّ أقومًا يتكلمون بألسنة الشياطين وما يملون عليهم، ويأتون الناس –زعموا- من قبل القرآن، فيشبّهون على الناس، وليس كل الناس يعلم ما يريدون، وإنما يريدون فرقة ويقرّبون فتنة، قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم، وتمكّنت رُقى الشيطان من قلوبهم، فقد أفسدوا كثيرًا من الناس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة، ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم، فارددهم إلى مِصرهم فلتكن دارهم في مصرهم.

فكتب عثمان إلى واليه على الكوفة سعيد بن العاص أن يردهم إليه، فما لبثوا عنده إلّا مدة قليلة، حتى أثاروا الفتنة مرة أخرى، وكان عثمان إلى هذا الوقت يرى أن الرفق أولى، وأن الحلم لا بد أن ينفع معهم، لكنه علم بعدُ أن هؤلاء المفسدين لا بد أن يعاملوا ببعض الشدة، فكتب يسيّرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد أميره على حمص، فلما صاروا عند عبد الرحمن في حمص، عاملهم معاملة غير معاملة سعيد ومعاوية، فاستدعاهم فور وصولهم، وكلمهم قائلًا:

-يا آلة الشيطان لا مرحبًا بكم ولا أهلًا، لقد رجع الشيطان محسورًا خائبًا، وأنتم ما زلتم نشيطين في الباطل، خسّر الله عبد الرحمن إن لم يأدبكم ويخزكم، يا معشر من لا أدري من أنتم، أعرب أم عجم!، لن تقولوا لي كما كنتم تقولون لسعيد ومعاوية، أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من قد عجمته العاجمات، أنا ابن فاقئ الردّة، والله لأذلّنكم.

فأقاموا عنده شهرًا، لا يكلمهم إلا بأغلظ القول، ولا يمشي إلا جعلهم يمشون معه، ولا يركب إلا جعلهم يركبون معه، ولا يغزو إلا جعلهم يغزون معه، وكان لا يدع فرصة لإذلالهم، وكان إذا قابل زعيمهم صعصعة بن صوحان قال له:

-يا ابن الخطيئة!، هل تعلم أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر، وأن من لم يصلحه اللين أصلحته الشدة.

وبقي على معاملتهم هذه مدة الشهر، حتى إذا رأى انكسارهم قال لهم:

-لماذا لا تردون عليّ كما كنتم تردون على سعيد في الكوفة، وعلى معاوية في الشام؟ لماذا لا تخاطبوني كما كنتم تخاطبونهم؟.

إلى أن أظهروا التوبة والندم بعد طول إذلال، فكان أن قالوا:

-نتوب إلى الله، ونستغفره، أقلنا أقالك الله، وسامحنا سامحك الله.

إلا أنه أبقاهم عنده ليتحقق من قولهم، ثم بعث بأحد رؤسائهم؛ الأشتر النخعي، إلى عثمان أمير المؤمنين ليخبره بتوبتهم، وأنهم رجعوا عمّا كانوا فيه من ضلال.

فلما حضر الأشتر بين يدي عثمان، أخبره أنه هو أصحابه قد تابوا، وأنهم لن يرجعوا لمثل ما كانوا يعلمون، فقال عثمان:

-احلُل أنت ومن معك حيث شئتم، فقد عفوت عنكم.

-نريد أن نبقى عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد.

فأقاموا عنده يظهرون الصلاح والتوبة، ويبطنون الشر والخديعة.

(فصل)

كانت هذه حال مثيري الفتنة في جميع الأمصار التي اشرأبت فيها عنق الفتنة، حالهم كحال هؤلاء الغوغاء الذين كانوا في الكوفة، من خبث النوايا وشر القصد، لا فقه لهم، ولا ورع ولا دين، أعراب أجلاف، وقوم نبذتهم قبائلهم، موتورون حاقدون.

و ما كان من تأديب عبد الرحمن بن خالد لغوغاء الكوفة، لم يمنع عبد الله بن سبأ من الاستمرار في حبك خطته، فكاتب من هم على رأيه في الكوفة و البصرة والمدينة ومصر، وكان هذا سنة أربع وثلاثين للهجرة، أي بعد أن مضى من خلافة عثمان أحد عشرة سنة، وعلى إثر مكاتبة ابن سبأ لأتباعه في الأمصار، كان التحرّك الأول في الكوفة، حيث تحرّك يزيد بن قيس زعيم الحاقدين الجديد، بعد نفي أولئك النفر إلى الشام ثم إلى حمص، فاختار يزيد هذا وقتًا كان فيه أشراف الكوفة وصلحاؤهم قد خرجوا للغزو، ووالي الكوفة سعيد بن العاص قد خرج إلى المدينة أيضًا، فأظهر العصيان، وأشاع أنه يريد فقط خلع سعيد بن العاص، وهو يضمر ما هو أكبر من ذلك.

ولما عاد سعيد إلى الكوفة ردّوه عنها، فأمر جنده أن لا يقاتلوه حتى لا تكون فتنة، وحتى يرجع إلى عثمان أمير المؤمنين، فعاد إلى المدينة، فسأله عثمان عن سبب رجوعه، فأخبره أنهم لا يريدونه واليًا عليهم، وأنهم يريدون غيره، فتعجّب عثمان، وسأله عن الذي يريدونه واليًا عليهم مكانه، فأخبره أنهم يريدون أبا موسى الأشعري صاحب رسول الله صلى الله عليه

وسلم، فولّاه عثمان عليهم لعلمه بصلاح أبي موسى وسابقته في الإسلام، ولكي لا يدع لهم حجة، فكتب إلى أبي موسى يولّيه على الكوفة.

وكان أبو موسى من قبل ينهاهم عن العصيان ويقول:

-أيها الناس، لا تخرجوا في هذه المخالفة، ولا تعودوا لمثل ها العصيان، والزموا جماعتكم والطاعة، وإياكم والعجلة.

-صل بنا.

-لا، إلّا على السمع والطاعة لعثمان بن عفان.

-حسنًا، على السمع والطاعة لعثمان.

وقد كانوا كاذبين في كلمتهم هذه، وما أرادوا بها إلا كسب الوقت، لمكاتبة باقي أصحابهم في البصرة ومصر والمدينة، وعثمان يبذل كل وسع في درء شرهم، حتى أنه كتب إليهم:

-أما بعد، فقد أمّرت عليكم من اخترتم، وأعفيتكم من سعيد، والله لأفرشنَّ لكم عرضي، ولأبذلن لكم صبري، ولأستصلحنكم بجهدي، واسألوني كل ما أحببتم، مما لا يُعصى الله فيه، فسأعطيه لكم، ولا شيئًا كرهتموه لا يُعصى الله فيه إلا استعفيتم منه، أنزل فيه عندما أحببتم، حتى لا يكون لكم عليّ حجة.

وكتب بمثل هذا الكتاب إلى كل مِصر نجم فيه النفاق والشقاق.

****

-أشير عليك أن تأمر أمراء الأجناد، فيكفيك كل رجل منهم ما قِبله، وأكفيك أنا أهل الشام.

كانت هذه مشورة معاوية بن أبي سفيان على أمير المؤمنين عثمان، في اجتماعه بولاته؛ عبد الله بن عامر، و عبد الله بن سعد، وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان، ليستشيرهم في أمر الفتنة التي طبّقت البلاد، وبعد أن سمع عثمان من كل واحد منهم مقالته قام، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

-كل ما أشرتم به عليّ قد سمعت، ولكل أمر باب يؤتى منه، وإن هذا الأمر الذي يُخاف على هذه الأمة كائن، وإن بابه الذي يغلق عليه فيكفكف به، اللينُ والمؤاتاة والمتابعة، إلا في حدود اللَّه تعالى ذكره، التي لا يستطيع أحد أن يبادي بعيب أحدها، وقد علم الله أني لم آلُ الناس خيرًا ولا نفسي، والله إن رحى الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحرّكها، كفكفوا الناس، وهبوا لهم حقوقهم، واغتفروا لهم، وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تداهنوا فيها.

وهكذا اختار عثمان أن لا ينكّل بمثيري الشغب، فأمر ولاته بما أمرهم، بمعاملتهم باللين والرفق والصبر إلّا في حدود الله، فلما انفض المجلس، قال معاوية لعثمان:

-يا أمير المؤمنين، انطلق معي إلى الشام، قبل أن يهجم عليك من الأمور والأحداث ما لا قِبل لك بها.

-أنا لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء، ولو كان فيه قطع خيط عنقي.

-إذن أبعث إليك جيشًا من الشام، يقيم في المدينة ليدافع عنك وعن أهل المدينة.

-لا، حتى لا أقتّر على جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم الأرزاق بجند تساكنهم، ولا أضيق على أهل الهجرة والنصرة.

-يا أمير المؤمنين، والله لتغتلنَّ، أو لتُغزينَّ.

-حسبي الله ونعم الوكيل.

****

لم يُجدِ مع الغوغاء شيء، ولم ينفع معهم الحلم والنصح، ففي شهر رجب من سنة خمس وثلاثين للهجرة، خرج ستمائة راكب من مصر إلى المدينة في صفة معتمرين، وهم يبطنون الشر والفتنة.

فكتب والي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى عثمان يعلمه بأمرهم، وأنهم ما خرجوا إلّا للفتنة، فلما وصلوا مشارف المدينة ندب أمير المؤمنين من يخرج إليهم ليحاججهم ويردهم، فانتدب علي بن أبي طالب.

ولما وصل عليٌ الموطن الذي حطوا فيه رحالهم قالوا لبعضهم البعض:

-هذا الذي تحاربون الأمير بسببه، وتحتجون عليه به!.

فقال عليّ:

-ماذا تنقمون على عثمان!؟.

-أنه حمى الحمى، وحرّق المصاحف، وأتم الصلاة في عرفة، وأنه ولّى الأحداث الولايات، وترك الصحابة الأكابر، وأعطى بني أمية أكثر الناس.

-أما الحمى، فإنما حماه لإبل الصدقة لتسمُن، ولم يحمه لإبله ولا لغنمه، وقد حماه عمر من قبل، وأما المصاحف، فإنما حرق ما وقع فيه اختلاف، وأبقى المتفق عليه كما ثبت في العرضة الأخيرة، وأما إتمامه الصلاة بمكة، فإنه قد نوى الأقامة فيها، وأما توليته الأحداث، فلم يولِّ إلّا رجلًا سويًا عدلًا، وقد ولّى رسول الله صلى الله عليه وسلم عتّاب بن أُسيد على مكة وهو ابن عشرين سنة، وولّى أسامة بن زيد بن حارثة، وطعن الناس في إمارته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه لخليق بالإمارة"، وإما إيثاره بني أمية، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤثر قريشًا على الناس،

ووالله لو أن مفتاح الجنة بيدي لأدخلت بني أمية فيها لأنهم مسلمون كغيرهم.

فأقام عليٌ الحجة عليهم بقوله وفعله، فهؤلاء الغوغاء الذي خرجوا زاعمين أنهم ما خرجوا إلا لإنكار المنكر ونصرة علي، هاهو الذي ادّعوا أنهم خرجوا نصارين له، يحاججهم ويدافع عن عثمان.

ولما لم يبلغ الغوغاء حاجتهم، تراسلوا وتكاتبوا فيما بينهم؛ خوارج الكوفة، والبصرة ومصر، ثم اتفقوا على تزوير كتب على لسان كل من طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام وعلي بن أبي طالب، يدعون الناس فيها لقتال عثمان، وأنه من أكبر الجهاد، ثم زوّروا كتابًا على لسان عثمان، يأمر فيه واليه عبد الله بن سعد بن أبي سرح، بقتل غوغاء مصر إذا رجعوا إلى بلدهم.

فخرج في شوال من نفس السنة، خوارج مصر والكوفة والبصرة كلٌ من بلده قاصدين المدينة، فأما أهل مصر، فأعلنوا أنهم يريدون علي بن أبي طالب خليفة لهم، وأما أهل الكوفة فيريدون الزبير بن العوام، وأما أهل البصرة فيريدون طلحة بن عبيد الله، فاجتمعوا على مقربة من المدينة في ذي خشب وذي المروة كما تواعدوا في كتبهم لبعضهم، ثم بعثوا رجالًا منهم إلى المدينة يوهمون الناس أنهم ما أتوا إلّا للحج وليستأذنوا في الدخول، فأبى أهل المدينة دخول أهل الشرور عليهم، ولمّا علموا رد أهل المدينة، ذهب جمع منهم إلى علي بن أبي طالب وقد كان في معسكر خارج المدينة.

-السلام عليك يا أبا الحسن.

فصاح بهم:

-لقد علم الصالحون، أن جيش ذي المروة وذي خشب، ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم، فارجعوا لا صبّحكم الله.

وذهب جمع منهم كذلك إلى الزبير، وجمع آخر إلى طلحة، فكان رد الزبير ورد طلحة كرد عليّ. ثم ما هي إلا أيام، حتى زحف هؤلاء الغوغاء بغتة إلى

المدينة، ودخلوها وأحاطوا بدار عثمان أمير المؤمنين، فذهب علي إلى أهل مصر منهم فقال:

-ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم!؟.

-وجدنا مع البريد كتابًا بقتلنا.

وكذلك قال أهل البصرة لطلحة، وأهل الكوفة للزبير، لمّا سألوهم عن سبب رجوعهم، وقالت كل فرقة منهم:

-إنما جئنا لننصر أصحابنا.

فقال لهم الصحابة:

-كيف علمتم بذلك من أصحابكم وقد افترقتم وصار بينكم مراحل!؟ إنما هذا أمر اتفقتم عليه.

ولمّا كُشف كذبهم قالوا:

-أجبروهم على ما أردتم، لا حاجة لنا في علي، ولا طلحة ولا الزبير.

(فصل)

في أوائل أيام الحصار، كان أمير المؤمنين عثمان يخرج كعادته للصلاة بالناس، وهؤلاء الغوغاء يصلّون خلفه على مضض، حتى كان ذاك اليوم الذي تجرّأ فيه رجل منهم يُدعى جهجاه الغفاري على عثمان وهو يخطب الجمعة على المنبر، وفي يد عثمان العصا التي كان يعتمد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر من قبله، فقام الجهجاه وقال:

-قم يا نعثل فانزل عن المنبر.

وأخذ العصا من يد عثمان فكسرها على ركبته، فصاح به الناس، ودخلت شظية منها في رجله، فبقي جرحه بعدها يكبر حتى أصابه العفن، ولم يحُل عليه الحول حتى مات.

فصعد عثمان بعد الصلاة على المنبر مرة أخرى فقال:

-يا هؤلاء العدا، الله الله!، فوالله إن أهل المدينة يعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم، فامحوا الخطأ بالصواب، فإن الله لا يمحو السيء إلا بالحسن.

فقام محمد بن مسلمة الأنصاري أحد الصحابة فقال:

-أنا أشهد بذلك.

فأخذه أحد الخوارج فأقعده، وقام زيد بن ثابت فشهد بمثل ما شهد به محمد بن مسلمة، فقام إليه رجل من الخوراج فأقعده أيضًا، فثار الناس في المسجد، فاجتمع الخوارج وهم أكثر الناس، فصاروا يرمون الصحابة بالحجارة حتى أخرجوهم من المسجد، وحصبوا عثمان وهو على المنبر حتى خرَّ مغشيًا عليه.

وفي الليل أقبل عليٌ وطلحة والزبير إلى عثمان يعودونه، ويشكون إليه ما حل بهم من هؤلاء الخوارج، وأجمع جمع من الصحابة الرأي على القتال والدفاع عن أمير المؤمنين عثمان، منهم أبو هريرة وابن عمر وزيد بن ثابت وغيرهم.

وبعد الذي وقع يوم الجمعة تفاقم أمر الخوراج وتجرّؤوا أكثر، فمنعوا عثمان من الخروج للصلاة، ومنعوا عنه الماء والطعام، وفي كل ذلك يطلب الصحابة من عثمان الإذن لقتال هؤلاء، وعثمان يأبى.

واشتد الحصار وطال لأيام، ولم يكن يخطر في بال أحد من أهل المدينة أن الأمور ستصل إلى حال أسوء مما هي عليه، إلّا أن الخوارج لم يكن عندهم لا مروءة ولا ديانة، وذلك أنهم منعوا أم المؤمنين أم سلمة من إيصال ماء أتت به إلى عثمان، وحاولوا إيقاعها عن ركوبها، لكن الله سلّم وتداركها الصحابة.

وركب علي بن أبي طالب بنفسه إلى عثمان، وحمل معه قربًا من ماء، فما أوصلها إلى عثمان إلا بعد جهد جهيد، وبعد أن ناله من الخوارج كلام غليظ وهو يقول لهم:

-والله إن فارس والروم لا يفعلون كفعلكم بهذا الرجل، والله إنهم ليأسرون فيطعمون ويسقون!.

وفي ذلك كله عثمان صابر صبرًا تعجّب منه المسلمون، حتى خرج يومًا من فتحة له في داره فقال:

-علامَ تقتلوني!؟، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا يحلُّ دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث؛ رجل زنى بعد إحصانه فعليه الرجم، أو قتل عمدًا فعليه القتل، أو ارتد بعد إسلامه فعليه القتل. فوالله ما زنيت في جاهلية ولا في إسلام، ولا قتلت أحدًا فأُقيد نفسي منه، ولا ارتددت منذ أسلمت، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. أنشد بالله من شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حراء إذ اهتز الجبل، فركله بقدمه ثم قال: اسكن حراء ليس عليك إلّا نبي أو صديق أو شهيد. وأنا معه.

فانتشد له رجال.

-أنشد بالله من شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بيعة الرضوان، إذ بعثني إلى المشركين من أهل مكة فقال: هذه يدي وهذه يد عثمان. فبايع لي.

فانتشد له رجال.

-أنشد بالله من شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من يوسع لنا بهذا البيت في المسجد ببيت في الجنة؟. فابتعته من مالي فوسّعت به المسجد.

فانتشد له رجال.

-أنشد بالله من شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم جيش العسرة قال:من ينفق اليوم نفقة متقبلة؟. فجهزتُ نصف الجيش من مالي.

فانتشد له رجال.

-وأنشد بالله من شهد رومة يُباع ماؤها ابنَ السبيل، فابتعتها من مالي فأبحتها ابن السبيل.

فانتشد له رجال، ثم عاد إلى داخل وهو حزين.

****

واستمر الحصار إلى يوم الجمعة الثامن عشر من ذي الحجة، وكان جمعٌ من أبناء المهاجرين والأنصار منهم، عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين ابنا علي، وخلق من موالي عثمان، كانوا قرابة السبعمائة رجل، قد أحاطوا بالدار للدفاع عنه، فقال لهم عثمان:

-أُقسم على من لي عليه حق أن يكفّ يده، وأن ينطلق إلى منزله.

وقال لعبيده:

-من أغمد سيفه فهو حر.

فخرجوا من عنده مضطرين لا يجدون بدًا من إنفاذ أمر خليفتهم، لكنهم مع ذلك ظلوا قريبين من الدار تحسبًا لغدر هؤلاء الخوارج.

وكان عثمان في ذلك كله ساكن النفس طيب الخاطر، لا سيما بعد تلك الرؤيا التي رآها، والتي قصّها على عبد الله بن سلّام صاحب رسول الله قائلًا:

-رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا عثمان حُوصرت؟، قلتُ:نعم، قال: عطّشوك؟، قلتُ: نعم، فأدلى دلوًا فيه ماء فشربت حتى رويت، حتى إني لأجد برده بين كتفيّ، وقال: إن شئت نُصرتَ عليهم، وإن شئت أفطرت عندنا. فاخترت أن أفطر عنده.

وكان عثمان لا ينسى يوم قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مرضه الذي توفي فيه:

-ادعوا لي بعض أصحابي.

فقالت أم المؤمنين عائشة:

-أبو بكر؟.

-لا.

-عمر؟.

-لا.

-ابن عمك علي؟

-لا.

-عثمان؟

-نعم.

فأتاه، ثم تنحّت أم المؤمنين عائشة، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يسارّه، يخبره بما هو كائن بما أطلعه الله عليه من الغيب، لذا كان عثمان يرفض كل عرض صادق قدمه الصحابة للدفاع والذود عنه، فقد كان زيد بن ثابت قد دخل عليه فقال:

-يا أمير المؤمنين، هذه الأنصار بالباب، يقولون: إن شئت نكون أنصار الله مرتين.

وقال له عبد الله بن الزبير:

-إن معك في الدار عصابة مستنصرة بنصر الله، فأذن لي فلأقاتل.

وابن عباس أيضًا قال لعثمان قبل ذهابه للحج بعد أن أمّره عثمان على الناس:

-إن مقامي على بابك أجاحف عنك، أفضل من الحج.

وعثمان يرد على ذلك كله:

-أقسم على من لي عليه حق أن يكفّ يده.

****

وبقي عثمان على ثباته، رافضًا الإذعان لهؤلاء الفاجرين وأمرهم له بخلع نفسه من الخلافة، وتمسّك بقول النبي صلى الله عليه وسلم له:

-يا عثمان، إن الله مُقمّصك قميصًا، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه لهم.

وفي نهاية الأمر، ولما خلت الدار من المدافعين عن عثمان إلّا في خارجه، ولم يبق سوى أهله، بدأ الخوارج بغتة بإحراق الدار علينا ومحاولة الدخول، ففزع عثمان للصلاة، وافتتح سورة طه، فقرأها والناس في الخارج يتناوشون، وصائح الصحابة يصيح:

-طاب الضراب.

ولما فرغ عثمان من صلاته، جلس لمصحفه ويجعل يقرأ، فكان أول من دخل عليه رجل يُقال له الموت الأسود، فخنقه خنقًا شديدًا حتى غُشي عليه، فتركه وهو يظنه قد مات، ثم أفاق عثمان، فدخل محمد بن أبي بكر وقد كان ممن استمالهم الخوارج، فأخذ بلحية عثمان، فقال له عثمان:

-لقد أخذت بلحية كان أبوك يكرمها.

فاستحى محمد، وغطّى وجهه ندمًا، وخرج. ثم دخل على عثمان آخر ومعه سيف، فضرب به عثمان، فاتقاه عثمان بيده فقُطعت، فقال عثمان:

-والله إنها لأول يد كتبت المفصّل من كتاب الله.

فكانت أول قطرة دم من دم عثمان سقطت على المصحف، على قوله تعالى:"فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم". ثم جاء آخر شاهرًا سيفه، فاعترضتُه بيدي لأمنعه، وقبضتُ على حد السيف لأنتزعه منه، فشدّه مني

فقُطعت أصابعي، ثم رميت نفسي على عثمان، فضربوني وأزاحوني عنه، ثم تقدم أحدهم فوضع السيف في بطنه فقتله، فقلتُ:

-إن تقتلوه أو تدعوه، فقد كان يحيي الليل بركعة يجمع فيها القرآن.

وبعد أن قتلوه أرادوا قطع رأسه، فصحتُ وصاحت النساء، وضربنا وجوهنا، فنظر أحدهم وقال:

-من هذه!؟.

-زوجه، نائلة بنت الفرافصة.

-اتركوه.

فمال بمن معه على ما في البيت فانتهبوه، وصائحهم يصيح:

-أيحلُّ لنا دمه ولا يحل ماله!.

ثم خرجوا، وتركوا زوجي أمير المؤمنين قتيلًا مضرّجًا بدمائه، مع غلامين له رفضا إلّا الدفاع عنه، ومرَّ كل ما مرَّ، وأنا لا أكاد أعقل ما جرى، بل إني لشدة مصيبتي لم أشعر بألم أصابعي المقطوعة.

لم أكن أصدق أن رجلًا كعثمان يُفعل به ذلك كله، فإن لم يحفظوا له حقه وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وسابقته في الإسلام ومآثره فيه، وثناء النبي صلى الله عليه وسلم غير مرّة، فلا كان أقل من أن يرعوا شيبته، وهو شيخ كبير قد جاوز الثمانين.

إلّا أني صحوت من أثر الصدمة، لما سمعت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت يقول بصوت عالٍ:

لتسمعنَّ وشيكًا في دياركمُ...

الله أكبر يا ثارات عثمانا